الأحلام الخمسة

إيمان خليل

إهداء إلى ..

الذين غزلنا من نسيج أحلامنا ثوبا لحماية قلوبهم العارية من نزلات الحنين و صقيع الوحدة..

هذا الكتاب من وحي خذلانكم...

مقدمة

اركض ..
اركض ..
أسرع!
لا تنظر خلفك
تفادى الأشجار أمامك
تجاهل صوت الطيور فوقك
اركض ..
لا يهم ذرات التراب في حذائك
تناسى إحساس الألم في قدمك
فقط اركض ..
خلف شعاع الشمس المتقطع
اسحق المزيد من أوراق الشجر المتساقطة
واركض ..
قطرات العرق تنبثق من مسام رأسك
تتساقط بغزارة مطر
لتبلل جبينك ووجهك
قلبك ينبض بقوة
يكاد أن يهرب من قفصك الصدري
لا بأس فهو مثلك يركض
صارت الرؤية ضبابية
ابتعد شعاع الشمس
فابتعد أنت أكثر واركض...
تحولت السماء رمادية
والأرض أرطب
اركض..
بدء الظلام يلقي ظلاله
و صار الطقس أبرد
صوت ما بدأ يتردد
ينادي باسمك دون توقف
شيء ما يلمس قدمك
يشل حركتك
الآن
توقف!
الأرض تهتز تحتك
تتصدع فتتفتح أكثر

تظهر حفرة عميقة
ويد يكسوها الوحل تمتد نحوك
ووجه ما غارق أسفلها
دقق النظر
اقترب أكثر
وجه نحيل ملون بالأسود
وعينان يكسوها الحزن
بلون النبيذ الأحمر
لا تخف
مد يديك
أسقط نحوه سقوطا حرا
إنه ينتظرك!
إنه...

أنت!

~~~~~~~~~~
~~~~~~~~~~

الفصل الأول

الثالثة صباحا كانون الأول (ديسمبر):

دقات قلبي تنتفض بسرعة غريبة، والعرق يبلل وسادتي رغم برودة الطقس. أحاول التنفس بشكل أهدأ.

على مدار الأشهر السابقة أستيقظ كل يوم في الميعاد نفسه، الكابوس نفسه، كابوس الركض في غابة لم أرها يوما. أشجار كثيفة، سماء تتلون من الأزرق إلى الرمادي إلى الأسود، وكأنه يوم كامل قد مر وأنا أركض، وهواء رطب خانق ينهك رئتيَّ أكثر! صوت الرياح تهب من آن لآخر، وتتساقط أوراق الشجر تحت أقدامي حتى يعلو صوت سحقها أثناء ركضي.

يا الهي! عضلات قدمي تؤلمني، كيف يمكن لحلم في باطن عقلي أن يوقظني في تلك الحالة المزرية؟ ما زلت لا أدري حتى ممن أو لِمَ أركض؟ شيء ما يدفعني للركض في هذا الاتجاه مع شعاع الشمس المتقطع، حتى يسود الظلام فيبدأ الجزء الأسوأ من الكابوس؛ صدى صوت قبيح لا أميزه، صوت خشن متقطع وكأنه رجل يحتضر، بدا الصدى قادما من أسفل بئر عميق خارج حدود رؤيتي، صوت ينادي اسمي! وفجأة تظهر تلك الحفرة التي تُفتح أمامي من لا مكان، وكأنها موجودة هناك منذ الأبد!

لو كان هذا الكابوس حقيقة ما حاولت الاقتراب منها أبدا. ولكن لأن كل شيء في ذلك الحلم خارج إرادتي؛ لذا اقتربت أكثر لأنظر، بعد أن غلب فضولي خوفي؛ فإذا بيد تمتد نحوي وتمسك قدمي بعنف، حاولت التحرر منها، لكن شيئا ما شل حركتي، ثم ظهر وجها مخيف ملطخا بالوحل، يبدو وكأنه استيقظ من بعد موت أحاول أن أصرخ لكن حتى صوتي لم يستطع التحرر من حنجرتي!

ظهر الوجه في حالة من الوهن والفزع يستنجد بشخص ما، كان يستنجد بي، كان وجهي أنا! نبض قلبي بعنف أكثر ثم فجأة استيقظت.

حاولت النوم من جديد فلم يرأف بي النعاس سوى الخامسة صباحا.

في السادسة صباحا رن منبه هاتفي؛ تلك الرنة الأشبه بصفارة الانطلاق قبل بدء السباق، ولم يكن الأمر أبعد من سباق حقيقي، أطفأت رنة المنبه وبقيت في السرير لبضعة دقائق أتساءل ما اليوم؟ الاثنين أم الخميس؟ استمعت إلى صوت العصافير خلف نافذتي وتخيلت للحظة كيف يمضي يومها؟ ولِمَ تحلم الناس دوما بجناحين؟ ربما الطيور أيضا تدور مثلنا في نفس الدائرة اليومية التي تسمى الحياة، فوجودها كل يوم في نفس الميعاد على نافذتي هو أكبر دليل على ذلك، لكن الفرق أنها ربما لا تمتلك

أحلاما، فالأحلام هي ما تجعل تقبل الواقع أصعب وليس كما يقال (لو توقفنا عن الحلم نموت)، بل لو توقفنا عن الحلم نحيا ، نحيا كالعصافير نبحث عن قوت يومنا ، نهرب من أعدائنا، ونحلق وقت الرحيل . نتقبل الحياة كما هي دون أن نفكر في حيوات أخرى ممكنة، ربما لهذا السبب تغبط الناس الطيور!

انتبهت أنه لا وقت لذلك التفكير؛ فالسباق على وشك أن يبدأ، وقد حان وقت الركض الحقيقي!

قمت بصعوبة من السرير وتركت زوجي نائما، اتجهت نحو الحمام وخلعت ملابسي لأستحم، وقبل أن أغسل وجهي نظرت كثيرا في المرآة لأرى كيف صار وجهي بذلك الشحوب، تلك الهالات السوداء أسفل عيني، الخطوط الدقيقة حول فمي وفوق جبيني، ثم نظرت إلى جسدي، متي تجمعت تلك الدهون حول خصري و تحت ذراعي وبطني المترهل، أيمكن أن تكون إثر الولادة مرتين وكأني ولدت امس وليس منذ خمسة أعوام!

سألت نفسي هل كل النساء تتحول هكذا بعد الخامسة والثلاثين؟ إن كانت الإجابة بنعم فهل ستغير من الأمر شيء؟.

فتحت الماء الساخن وبقيت تحته دقائق أحاول أن أفرغ عقلي من ذلك الصخب الصباحي اليومي، ولكنه رفض وظلت أمواج الأفكار تتدفق في رأسي تماما مثل تدفق الماء على جسدي، ولكنها كانت أكثر حرارة.

لماذا لم يخترعوا بعد مرايا بتكنولوجيا الفلاتر، تلك التي توجد في الكاميرات والتي تخفي العيوب بكفاءة عالية؟ ربما لم نكن وقتها نحتاج لأن نواجه المزيد من الحقائق كل صباح.

قطع حبل أفكاري صراخ زوجي ينادي:
نااااااادين !

- نعم يا هشام ! قادمة.

(لو كان يغرق ما كان لينادني هكذا!)
قلت في نفسي وأنا أغلق المياه بسرعة وأرتدي روب الحمام.

- لماذا لم توقظيني ؟
سألني هشام فور دخولي الغرفة

- لماذا تحب أن توقظ مرتين؟ لقد استيقظت بالفعل؟
أجبته وأنا أفتش في دولابي عما أرتديه.

أخذ تنهيدته المعتادة والتي تنم عن نفاذ صبره ربما مبكرا تلك المرة، ثم سألني من جديد بلهجة تهكم:
- هل أيقظتي الأولاد وجهزتِ الفطور؟ أم أن كل شيء أيضا جاهز بالفعل؟

- لن افعل ذلك عارية! سوف أرتدي ملابسي، وأجهز الفطور، وأوقظ الأولاد، وأساعدهم في ارتداء ملابسهم، وأجهز فطورهم وحقائبهم، ثم أوصلهم لباص المدرسة، تماما مثل كل يوم.
قلتها بضحكة مفتعلة وأنا أعد على أصابع يدي.

أزاح عنه الغطاء ودخل الحمام دون كلمة واحدة.

تزوجت هشام منذ عشرة أعوام بعد قصة حب استمرت عامين، وعام آخر بعد الزواج، يعمل هشام في إحدى البنوك الخاصة مدير خدمة العملاء، وقد قابلته منذ عشرة أعوام في نفس البنك، كان وقتها موظفا مبتدئا لا شيء تغير في عمله على مدار سنوات سوى اللقب بعد ترقيته بالرغم من كل الفرص التي طرقت بابه، فقد كان يرفضها جميعا، حتى تلك الفرصة كمدير تنفيذي في بنك خاص صغير فتح في مصر حديثا بضعف راتبه الحالي، لكن رده كان الرد المعتاد الشائع (المال ليس كل شيء)!

الحقيقة أنه حبس نفسه منذ أعوام في منطقة أمان زائفة، أصبح الخروج منها كخروج الجنين من رحم أمه يحتاج الكثير من الدفع ومن الألم .

أما أنا فقد تخرجت من كلية التجارة - نفس جامعة هشام - لكن لأنه كان يكبرني بخمسة أعوام فلم نلتقِ أبدا داخل أسوار الجامعة، كان للقدر خطة مختلفة في لقائنا الأول وسط أسوار الحياة.

عملت بعد تخرجي مباشرة في إحدى الشركات الخاصة بأجهزة الحاسوب في مركز الاتصالات الخاص في خدمة ما بعد البيع ، كان عملي وقتها لا يتعدى تحمل غضب العميل ومحاولة تهدئته كطفل كسرت لعبته المفضلة، ورغم كرهي لذلك لكني كنت مجبرة على هذا العمل؛ فقد كنت الابنة الكبرى لأم لا تعمل، وأب توفي منذ كنت في السابعة من عمري، أما أختي الأصغر مني بثلاثة أعوام شيرين فكانت الطفلة المدللة التي تهتم بأنوثتها ونعومة أظافرها، ولم تكن تكترث لشئ أكثر من تغيير لون شعرها وطلاء أظافرها، وقد كان معاش أبي لا يكفي لشئ من أحلامها ولا أحلامي، لكن لا أستطيع أن أنكر بأن هذا العمل الذي كرهته قد سهل عليّ عملي في المبيعات

بعد ذلك، فقد تعلمت الصبر والقدرة على الإقناع وسماع الأسئلة المستفزة بصدر رحب!

ما زلت في هذا السباق الصباحي الأبدي، ارتديت بدلتي السوداء المفضلة والتي سوف ينتقدها مديري فور رؤيتي بتعليقه الذي يظنه مرح (أنتِ لا تعملين في الشرطة بالمناسبة)، رفعت شعري إلى أعلى ووضعت بعض مساحيق التجميل لإخفاء علامات الإرهاق المرسومة على وجهي والتي أصبحت جزء من ملامحي.

دخلت غرفة الأولاد المدهونة باللون السماوي، فبعد انجابي أحمد منذ سبعة سنوات لم أكن أخطط لإنجاب طفل آخر فصممت الغرفة لولد واحد، لكن بعد سنتين من ولادته ولدت حلا، فلم أبدل شيئا في الغرفة الذكورية سوى إضافة سرير آخر وصورة للأميرة سنوايت بجوار صورة سوبرمان، وكأن بذلك قد حُلت المشكلة.

- هيا يا أولاد استيقظوا سوف نتأخر.

(مثل كل يوم) أضفت في سري.

- ماما الطقس بارد جدا لا أود الذهاب إلى المدرسة

قالها أحمد من تحت الغطاء.

- لماذا لا نذهب للنادي بدلا من المدرسة؟

أضافت حلا.

لم يكن لدي أي طاقة لهذا الجدال اليومي.

- فكرة رائعة يا حلا ربما لاحقا! هيا لا وقت.

رفعت عنهم الغطاء وبدأ صوتي يتصاعد ولا أدري لماذا في تلك الطبقة العالية من الصوت أشعر كأن أمي هي من تتحدث وليس انا!

بعد مناقشات وجدال وصراخ استمر لنصف الساعة كنت قد أنهيت مهمتي الأولى، ثم اتجهت لتناول الفطور مع هشام، والذي لم ينظر إليَّ نظرة واحدة ولم ينطق بكلمة، كأن الصمت بيننا هو لغة الحوار الوحيدة لا يكسرها سوى صوت الملعقة أو رشفة شاي.

في طريقي إلى العمل ما زلت لا أستطيع تمييز اليوم ولم أحاول أن أطلع على الهاتف لأعرف في أي يوم نحن، ربما أنا ما زلت في الأمس أو غدا . ما الفرق؟

جاء صوت فيروز في الراديو (شو كانت حلوة الليالي). تذكرت لقائي الأول بهشام بعد ترك عملي والتحاقي بعمل جديد في شركة مستحضرات تجميلية، وكنت منفعلة جدا فور دخولي البنك؛ لأن هناك خطأ في حسابي البنكي الجديد. كان يجلس

في الزي الأزرق الرسمي للبنك وجه نحيف، أنف دقيق وكأنه مرسوم بقلم رصاص، شعر أسود ممشط للخلف وعينان بندقية اللون، ما زلت اذكر نظرته لي، كانت عيناه فيهما عطف مبالغ يمنحك إحساسا فوريا بالهدوء، وبالرغم من تغير كل تلك التفاصيل الآن فالوجه النحيف قد امتلأ كثيرا، حتى إن أنفه الدقيق تظنه غير موجود، والشعر الأسود أو ما تبقي منه تخلله الكثير من الخصل البيضاء لكنه لا يزال يحتفظ بتلك النظرة مع الفرق أنها أصبحت تثير اعصابي.

ساعة مضت في الطريق منذ خرجت من شقتي الصغيرة في مدينة نصر وسط زحام السيارات، أبواق غير مبررة فقط لإصدار ضجيج إضافي، وكأن صخب الشارع غير كاف.

وصلت الشركة أخيرا في المعادي بعد تجاوز مئات الأرقام للشوارع وسألت نفسي السؤال المعتاد إن كان مصمم هذه المنطقة عالم رياضيات؟ هذا العشق الخفي للأرقام!

بدأت العمل في شركتي الحالية منذ ثلاثة سنوات في قسم المبيعات ، فقد مكثت في المنزل بعد ولادة حلا سنتين حتى التحقت بتلك الشركة التي تعمل في استيراد الأجهزة المنزلية، و دوري الحالي هو تحقيق الأرقام التي يضعها مديري، فأظل ألهث خلفها في سباق من نوع آخر.

مديري الأستاذ نبيل ذلك الرجل السمين ذو الشارب السميك، في منتصف الأربعينات، له صوت مبحوح أشبه بشخصية كرتونية، كل وظيفته أن يلقي بالكرة! ونحن فريق المبيعات كلابه المروضة نركض حتى نصل للكرة، ونعود بها كغنيمة نلتمس رضاءه.

ظللت في سيارتي عشر دقائق رغم تأخري بالفعل نصف ساعة عن موعد العمل ولكني كنت بحاجة إلى بعض الهدوء قبل المعركة التالية.

على مدار السنين الماضية جميعها كنت أحيا كإنسان آلي فقط يتلقى الأوامر وينفذها دون تفكير، لكن مؤخرا؛ و منذ بداية ذلك الكابوس الليلي أصبحت أشعر بصوت داخلي يصرخ يتمرد، يرفض تلك الحلقة المغلقة إلى ما لا نهاية، صرت مجهدة وصار صخب أفكاري ورماد احلامي القديمة ينزعان قوتي دون أن أشعر.

لا أذكر متى آخر مرة بكيت فيها لكن الدموع في عيني قد جفت جفاف أرض لم تذق المطر يوما، تمر الفصول عليها لكنها وحدها في جفاف دائم في نقطة بعيدة في أقصى الأرض.

قطع حبل أفكاري تلك المرة الحارس (عم حسين):
- صباح الخير يا أستاذة نادين ، هل هناك خطب ما في سيارتك؟

- لا ..لا شيء.

صعدت إلى الشركة المكونة من خمسة مكاتب صغيرة تضم جميع الأقسام ، كل شيء كما هو كل يوم نفس الوجوه نفس الكلمات نفس ردود الأفعال، لا شيء واحد يمكنك أن تميزه عن الأمس.

دخلت مكتبي بعد عشرات من صباح الخير والسؤال اليومي عن صحتي ، رن الهاتف فور جلوسي فكان الأستاذ نبيل في صوته الكوميدي الجاد:
- نادين ، متأخرة كالعادة الاجتماع قد بدأ.

- أي اجتماع؟

- الاجتماع الأسبوعي للقسم، اليوم الخميس!

- قادمة حالا.

اليوم الخميس، ها قد عرفت أخيرا في أي يوم نحن!

~~~~~~~~~~

في غرفة الاجتماعات كان كل من حازم وعادل يجلسان على جانب الطاولة، ومي على الجانب الأخر، وعلى رأس الطاولة الأستاذ نبيل في بدلته الرمادية التي تذكرني بصورة جدي رحمه الله، نظر الىّ فور دخولي نظرة صارمة تنم عن غضب لن يصمد طويلا في اخفاؤه.
جلست بجوار مي والتي سألتني في همس:
- لماذا تأخرتِ هكذا؟

- زحمة مرور.
أجبتها وقد استنكرت في سري هذا الكم الهائل من مساحيق التجميل، والتي تخفي ملامح وجهها رغم أن سنها لا يتجاوز الخامسة والعشرين، وشعرها المموج الكثيف ذو اللون الأحمر قد حجب عن رؤيتي نصف وجه الأستاذ نبيل، وددت لو أبدل مقعدي لكن الأمر لا يستحق.
~~~~~~~~~~

- كما تعلمون نحن في نهاية العام وهذا الاجتماع لمناقشة إن كنا حققنا الأهداف المحددة لتلك السنة أم لا.

قالها نبيل ثم بدأ في سرد الأرقام الخاصة بكل من حازم وعادل وقد كانت مرضية نوعا ما، رغم أنهما قد انضما للشركة مؤخرا في بداية السنة ، أما مي فقد كان لها الجانب الأوفر في المديح على الأرقام الرائعة التي حققتها.

لابد من أن هناك علاقة ما بين الشعر المموج والأجهزة المنزلية!

بعد أن انتهى معهم نظر إليَّ نظرة عميقة ثم سألني سؤال غريب؛

- ما عمرك يا نادين؟

سكت قليلا قبل أن اجب فهو يعرف بالفعل لكني كنت أدرك إلامَ يرمي:

- ستة وثلاثون.

- أنتِ معنا منذ ثلاث سنوات، أرقام مبيعاتك تتناقص كل سنة، لكن هذه السنة هي الأسوأ، فأنت لم تحققي سوى عشرة بالمائة فقط من الأرقام المفترض تحقيقها.. هل يمكنك تفسير الأمر؟

قالها نبيل وقد رفع حاجبه الأيمن، ويده على ذقنه في انتظار الرد أو كنوع من التأديب عن طريق إحراجي، فأي رد كان لن يخرجني من هذا المأزق.

و دون تفكير أجبته:

- ربما سقطت الكرة في حفرة ما!

نظر إلي نبيل وكل من في الغرفة نظرة تعجب، ثم سألني بلهجة اشمئزاز:

-أي كرة؟ عن ماذا تتحدثين؟

فكرت لحظة في الرد المناسب، هل أخبره بأني قد سئمت من الركض خلف الأرقام المبالغ بها التي يضعها أثناء نومه؟ أم أخبره بأن شعري ليس بكثافة شعر مي وأني لن أستطيع تلوينه هذا اللون في ذلك العمر، فسوف أبدو كإحدى العاهرات؟ أم أخبره ببساطة بأني فشلت؟

ولكنه ليس أبي! لن يتأثر بتلك التراجيديا النسائية، فلن يمسك يدي و يخبرني أنه لا بأس وإن حظي سوف يصبح أفضل في الفترة القادمة.

ثم فكرت لو فقط أرحل دون رد لكني تراجعت، وحاولت طرد كل تلك الأفكار كمن يحاول طرد الأرواح الشريرة التي سيطرت عليه، وعدت إلى الروبوت الخاص بي فابتسمت بهدوء ثم قلت:

- اعتذر لك يا استاذ نبيل عن تلك الأرقام السيئة ولكني أعدك عن طريق خطتي الجديدة سوف ترتفع تلك الأرقام خلال الفترة المقبلة، وسوف ترى نتائج مبهرة.

أغلق الحاسوب الخاص به وقال وهو ينهض من على الكرسي دون أن ينظر الي:
- أتمنى ذلك.
ثم رحل.

~~~~~~~~~~~

الذكريات.. تلك الصور المدفونة في تلافيف العقل تتحرك من آن لأخر لتطفو فوق سطح رؤيتنا، قد يثير تحركها أبسط الأشياء مثل أغنية قديمة، وجه مألوف أو شذى عطر.

لكن شيء ما في هذا التوقيت الحرج من العمر يثير تلك الذكريات، يعبث بعقلي فتتحرك تلك الصور القديمة في حركة أشبه بالبندول، تتصادم بشكل مستمر وحركة منتظمة.

تذكرت أبي في زيه البسيط عند عودته من العمل من مكتب البريد، كان له جسد نحيل ووجه بشوش دائما، حتى أنني أذكر المسافات الصغيرة بين أسنانه، تلك الصورة التي غرست في عقلي بأنه رجل عجوز رغم إنه كان لا يزال في أوائل الخمسين حين تمكن منه المرض اللعين.

أذكر ألواح الشوكولاتة التي كان يشتريها لي ولأختي عند عودته كل يوم وصراخ أمي عليه لفرط تدليله لنا والإسراف في راتب الشهر، أمي كانت صارمة دائما رغم طيبة قلبها، ولكنها كانت امرأة قوية لا تظهر ضعفها أبدا حتى عند وفاة أبي لم تسقط من عينيها دمعة أمامنا ولكني كنت أسمع نحيبها ليلا بعد نومنا.

تحولت الحياة بعد موت أبي كثيرا حتى صار البيت أشبه بثكنة عسكرية ، لا سهر، لا خروج مع الأصدقاء وحدنا، لا رحلات مدرسية، ولا أعلم أن كان ذلك نوع خاص من الحماية لعدم شعورها بالأمان وثقل المسؤولية، أم لظروفنا المادية والتي لم تكن تسمح لأبسط الأشياء، والتي كانت تطلق عليها كلمة (رفاهية).

رن هاتفي وكأن ذلك الطيف من الذكريات قد مر بها في نفس الوقت:

- شيرين حبيبتي افتقدتك كثيرا.

- اهلا يا نادين أنا أكثر ، كيف حالك؟
~~~~~~~~~~~

- بخير.

- ما بكِ؟ صوتك حزين؟ هل هناك خطب ما؟ هل الأولاد بخير؟

- لا تقلقي انا فقط متعبة قليلا.

- هل تشاجرتِ مع هشام من جديد؟

- هشام! لا نحن في هدنة دائمة، أخبريني كيف حال زوجك ، هل تأقلمتي على الغربة بعد؟

ضحكت شيرين ثم قالت:
- الغربة رائعة! ونحن بخير لا شيء ينقصني سوى رؤيتك انتِ وأمي، هل زرتها قريبا؟

سكت قليلا.. لم أشعر بأن تلك المكالمة القصيرة قد تحتمل مزيدا من الشكوى:
- نعم ، هي بخير لا تقلقي.

أغلقت الهاتف وفكرت في مكالمة شيرين، ترى هل تشعر بالسعادة في حياتها الجديدة؟ ثم سألت نفسي: هل أشعر أنا بالسعادة؟ كنت أتجنب ذلك السؤال منذ وقت بعيد، كنت أخشي أن تكسر الإجابة إحدى حلقات الدائرة فلا أقوى على الدوران ، لكن السؤال الذي قيدته بسلاسل الروتين والانشغال الدائم قد تحرر، وصار ناقوس يعلو صوته كل يوم... ولم يعد من السهل اسكاته.

رحلت من المكتب في الثانية ظهرا ، استقبلت الأولاد من المدرسة وفي طريقنا إلى المنزل أوقفني أحمد:
- ماما ، اليوم الخميس ألن نذهب إلى تمرين السباحة؟

لا أدري كيف نسيت، كنت مجهدة جدا لكني غيرت اتجاهي إلى طريق النادي.
- أسفة يا حبيبي سوف نلحق بالتمرين لا تقلق.

أحمد طفل هادئ يحمل الكثير من ملامح أبيه وشخصيته على عكس حلا، والتي تشبه خالتها شيرين كثيرا، تعشق الجدال حتى في أتفه الأمور، تبحث عن تفسير لكل شيء، حتى في شعرها القصير البني وعيناها الواسعة وأنفها الصغير تشبهها تماما.

بعد التمرين عدنا إلى المنزل وكان هشام في المنزل بالفعل، جلسنا لتناول الغداء والصمت فوق رؤوسنا كغيمة سوداء أشعر بثقلها، حتى بدأت حلا في الحديث:
- سوف يكون هناك حفلة في المدرسة للسنة الجديدة في نهاية الأسبوع القادم، ألن تحضر يا أبي؟

تعجبت من سؤالها وتجاهلها لي ثم انتظرت رد هشام المتوقع.
- لا وقت يا حبيبتي، لدي الكثير من العمل يمكن لأمك إن تذهب معك.

- و لكنها سألتك أنت.
قلت له بلهجة غيرة.
- حلا تريد تعجيزي ليس أكثر لأنها تعلم بأني لن أستطيع الحضور.
قالها هشام وهو ينظر إلى طبقه في لامبالاة.
- بل ربما لأنها تفتقدك معها.
أجبته.
نظر إلي نظرة فارغة ثم أكمل طعامه لتعود غيمة الصمت من جديد .

الساعة الثامنة مساءً، بعد مراجعة دروس الأولاد، ووضعهم في سرير النوم كان لا يزال لدي جزء آخر من اليوم، رحلة البحث عن الأرقام من جديد في خطتي الجديدة التي وعدت بها الأستاذ نبيل ولازلت لا أدري عنها شيئا.

زرت بعض الموزعين في نطاق منطقتي، وكنت أشعر أني أغرب من كل يوم، كان تصنع الابتسامة أصعب ، التحدث عن الشركة وعن العروض أصعب ، كان كل شيء أقوم به يتطلب المزيد من الجهد، كنت أشعر بعقلي شاردا، وكأنه في بعد آخر بعيدا عن الواقع.

في طريق العودة مررت بالمطعم الذي قابلت به هشام في أول موعد بيننا، تذكرت ابتسامته وقتها، لمعان عينيه بالأعجاب، ذلك البريق الذي يعدك بالعالم بين يديه.. كيف انطفأ؟ كيف تحول كل شيء؟ ومن هذا الرجل الذي لا يحمل منه سوى اسمه! هذا الرجل الذي يشاركني سريري دون أن يلمسني، هذا الرجل الذي يقتلني كل يوم بالصمت وفي صمت!

عدت إلى المنزل في الحادية عشرة مساءً، كشمعة احترقت على مدار اليوم، رقدت بجواره وكان نائما بالفعل، كنت بحاجة شديدة إليه، وددت أن أبكي على صدره أن أخبره بأني متعبة وددت أن أخبره أني خائفة من ذلك الكابوس كطفل يلتمس النوم في حضن أبيه، ولكني منعت نفسي خشية مزيد من الخذلان، احتضنت وسادتي ونمت.

~~~~~~~~~~~~~~

الثالثة صباحا..
مزيد من الأشجار الكثيفة الملتفة جذورها، أسمع صوت أنفاسي يتصاعد وكأن طاقتي تتضاءل كل يوم عما قبله، ولكني لا زلت أركض ربما بسرعة أقل ولكني أركض بأقصى طاقة لدي ..
~~~~~~~~~~~~~~

فتحت عيني في فزع، للحظة فقدت إدراكي، أين أنا؟ وضعت يدي على صدري كان قلبي لايزال ينبض بعنف، أضأت المصباح بجوار السرير ودون أن أفكر أيقظت هشام والذي كان يغط في ثبات عميق:

- هشام.

قلتها بصوت مرتجف لكنه مسموع.
استيقظ هشام في فزع.

- ما الأمر؟ ماذا حدث؟

- تحدث معي

قلتها وأنا أضع يدي فوق كتفه وكأني أرجوه.

- الآن يا نادين؟ هل فقدتي عقلك؟

- ليس بعد.

- أرجوكِ دعيني أنام الآن وغدا سوف نتحدث.

قالها وهو ينزع يدي من فوق كتفه.

- ليس غدا تحدث معي الآن .

بدأ صوتي يعلو وشعرت أني في مرحلة لا يمكن التراجع فيها.
أزاح الغطاء عنه وأسند ظهره ثم أخذ تنهيدته المعتادة:

- نعم يا نادين ما الأمر؟

- لماذا لم نعد نتحدث؟ لماذا تتجاهلني؟

- هكذا أصبحت حياتنا منذ سنوات مضت، ما الجديد الآن، الساعة الثالثة صباحا؟

قالها بلهجة باردة.

-لماذا؟ لماذا تحولت الحياة إلى مشاهد معادة بلا معنى؟ لماذا لم تعد تحبني؟
نظر إلي نظرة طويلة ثم قال ما كنت أخشى سماعه:

- لكل شيء عمر حتى المشاعر.

- إذن أنت تكرهني؟

قلتها بصوت مخنوق، وددت لو أبكي لكني لم استطع.

وضع يده على رأسي كمن يخبر مريض بأيامه المتبقية من عمره:

- لست أكرهك ولم أكرهك أبدا لكن الحياة قد تغيرت كثيرا، صار أولادنا هما الأولوية، لم يعد هناك مكان للمشاعر التي تبحثين عنها وسط أوراق الروايات الرومانسية استيقظي يا نادين ، نحن في الواقع!

- للأسف يا هشام لقد استيقظت بالفعل، ومقت هذا الواقع كثيرا ، لم أعد أحتمل التظاهر بأن كل شيء على ما يرام؛ لأن كل شيء هربت منه أصبح يطاردني في واقعي وفي أحلامي، الوحدة، اليأس، الفراغ، الفشل. كل تلك المشاعر صارت وحوش تتغذى على طاقتي في كل يوم.

سكت هشام قليلا وشعرت به قد تأثر بكلماتي لكنه فضّل أن يبقى في منطقة الأمان الخاصة به، تلك المنطقة التي دائما ما تخشى المواجهة وتخشى التغيير، تفضل أن يبقى الوضع كما هو عليه حتى وإن كان الأسوأ.

- اسمعي يا نادين أنا لا ارى أن هناك مشكلة. لدينا حياة رائعة وأولاد، وعمل جيد، إن كان هناك مشاكل في عملك يمكنك البحث عن عمل آخر أو ربما تحتاجين إلى إجازة قصيرة!

- لا يا هشام ليست حياة رائعة، كما أن المشكلة ليست في عملي فحسب فنحن نفتقد الكثير: المال..الحب..النجاح! ألا يعني ذلك شيئا لك؟

- إذن دعينا نسرق البنك الذي أعمل فيه ونسافر إلى جزر المالديف لقضاء شهر العسل!

أجاب هشام بسخرية.

- لقد اتسعت الفجوة بيننا كثيرا حتى صار الحديث معك مرهق ولا جدوى منه.

أطفأت المصباح ولم أتحدث عن المزيد عما في قلبي، وددت لو سألته لماذا لم يعد يقترب مني؟ هل يراني قبيحة؟ هل هناك امرأة أخرى في حياته؟
ولكني التزمت قواعده ، التزمت الصمت!

بقيت مستيقظة حتى سمعت أصوات العصافير من جديد فوق نافذتي، فأدركت بأن يوما جديدا على وشك أن يبدأ.

~~~~~~~~~~~~~~~

شعرت فجأة بالغطاء يُسحب من فوقي ويد تحاول فتح عيني
~~~~~~~~~~~~~~~

- ماما، استيقظي الساعة الحادية عشر!
قالتها حلا وهي تفتح عيني بيدها الصغيرة

- ماذا؟ الحادية عشر! المدرسة.. العمل.
قلتها في فزع ولا أدري كيف استغرقت كل ذلك الوقت في النوم.

- اهدئي يا أمي اليوم هو الجمعة، لا مدرسة ولا عمل.
قالها أحمد وهو يضحك.

تنفست الصعداء ثم عانقتهم وقبلت رأسهم ثم نظرت بجواري فلم أجد هشام.
- أين أبيك؟ سألت أحمد وقد تذكرت حديثي مع هشام أمس.

- لا أدري لقد خرج منذ ساعة، ألن نذهب إلى جدتي اليوم؟

- لا أحب أن أذهب إلى جدتي، ثم أن كل مرة تُغضب أمي وتجعلها حزينة، أنا لا أحبها.
ردت حلا بكلماتها المتقطعة وعينان يملأها التذمر.

لم أشأ لحلا أن تفكر في أمي هكذا، ولم أكن أنوي الذهاب إليها خاصة في مزاجي الحالي، لكنه قد مر أكثر من ثلاثة أسابيع منذ آخر زيارة لها، ولابد من أنها غاضبة مني.

- حلا لا تقولي هكذا على جدتك فهي تحبنا كثيرا، هيا سوف نذهب إليها لكن تناولوا فطوركم أولا.

نظرت اليّ حلا في غضب ثم قالت:
- ولكن أبي قد وعدني بأن نذهب إلى الملاهي.

- وأين هو الآن؟
أجبتها.

أصدرت صوتا ينم عن مزيد من التذمر وعقدت يديها على صدرها ورحلت.
قلت في نفسي (كم أخشى عليكِ الحياة يا حلا، فربما يخذلك غضبك كثيرا).

- ماما هل أنتِ بخير؟ أشعر أنكِ مريضة؟
سألني أحمد في عطف.

- لا يا حبيبي أنا بخير لا تقلق.
تمنيت لو كان عمره أكبر قليلا، ربما كنت أستطيع أن أخبره عن هذا الصخب في عقلي.

~~~~~~~~

في الطريق إلى منزلي القديم في الهرم مررت بمحطة الوقود بعد اضاءة اللمبة الخاصة به، تصفحت في ذهني تلك اللائحة؛ لائحة ما يجب عمله كل يوم من المهام المفروضة، ووضعت علامة وهمية بجانب البند الخاص بالزيارة العائلية.

كان صراخ أحمد وحلا يتصاعد في السيارة، ذلك الشجار الذي لا ينتهي حول كل شيء وأي شيء.

- السيارات لا تتغذى مثلنا إنها جماد.
قال أحمد لحلا.

- بل تتناول الوقود مثل تناولك الحليب.
ردت حلا باستنكار.

- بل هي جماد تتوهمين تغذيته كما الحال في دميتك الحمقاء.
بدأ صوت الشجار يعلو

- لا تتحدث هكذا عن دميتي فسوف تغضب منك.

- لا شك بأنك حمقاء مثلها.

صرخت دون أن أشعر :
- كفاااااا لا أريد أن أسمع صوت اي منكما حتى نصل.

اعتذر أحمد واحتضنت حلا دميتها ونظرت إلى الشباك.

يقال أن الأمومة غريزة تولد معنا وتكبر معنا حتى يحين وقتها لتتحرر، لكنها شيء معقد كثيرا، فبالرغم من أن كل الأمهات تحب أطفالها، لكن ذلك الحب قد يأخذ أشكالا عديدة وفقا لشخصيتنا الحقيقة وبعيدا عن الغريزة، ولا شك أن كثيرا من الأمهات تفشل في الإفصاح عن حبها بالشكل الصائب، فيظهر الحب كنوع من العقاب، تلك المخاوف المدفونة بداخلنا لتكوين شخصيتهم - بعيدا عن أخطائنا- تجعلنا أكثر
~~~~~~~~

حساسية، تجاربنا التي فشلت، والتي نأخذ حذرا مبالغا حتى لا يقع بها أولادنا، فحين أنظر إلى عيني حلا أجد نفسي أرفض ذلك التمرد بهما، وحين أنظر إلى عيني أحمد أرفض فيهما استسلام أبيه، وما بين الاثنين أحاول أن أجد التوازن لحياة مُرضية. لكن كيف وأنا نفسي افتقدها؟

يقول "ميتش ألبوم" أن طفولتنا مثل الزجاج الخام كل من يتعامل معه يترك به أثر، ولا شك أن أمي قد تركت بي شروخا لازلت استشعر ندبتها رغم كل ما مضى من عمر، ما مرت به من صعوبات الحياة جعل شخصيتها تطغى على حبها، مثل الأم الباندا، فهي تختار الأقوى بين طفليها لتمنحه عناية خاصة، أما الطفل الأضعف فله الحياة لتلقنّه دروس القوة وقد كنت أنا الطفل الأضعف.

وصلت إلى ذلك الحي القديم الذي كبرت فيه وسط أناس ودودين يعرفون تفاصيل حياتك اليومية، ليس فضولا بقدر الاهتمام، لا شك بأن كل شيء قد تغير كثيرا عن اليوم الذي تركت فيه منزل أمي، لم يعد الدفء يملأ المكان، حتى العمارات الصغيرة التي كانت تحيط منزلنا قد تم ترميمها لتصبح صورة لأبراج مزيفة في تلك الشوارع الضيقة، وحده منزلنا ما صمد وسط ما يسمونه بالتطوير العقاري، ظل متمسكا بألوان طوبه الأحمر التي لم تدهن يوما، وتُركت للغبار ليمنحها لونه الخاص، أُضيف دور رابع (مخالف بالطبع) لأدواره الثلاثة بعد فشل صاحب العقار في تحويله لبرج هو الأخر.

- ها قد وصلنا!

قلتها وأنا أفتح باب السيارة الخلفي لحلا وأحمد.

- هل سنضطر إلى صعود الدرج، لماذا لم تشتري جدتي مصعدا بعد؟ فقدمي تؤلمني.

سألت حلا السؤال المعتاد في كل زيارة لأمي وأجبت بنفس الرد في كل مرة:

- هكذا الحال في البيوت القديمة كما أنه في الدور الثالث لا حاجة لوجود مصعد.

أمام الباب انتظرت قليلا لا أدري لماذا لم أقوى على دق الجرس. كان هناك صوت بداخلي يود أن يهرب من هذا اللقاء، وقد هزم أحمد ذلك الصوت وهو يطرق الباب.

فتحت أمي بعد دقائق قليلة من الانتظار في ثوبها الأبيض من الصوف المفضل لديها في هذا الطقس البارد، كان وجهها شاحبا قليلا، وعينيها ثابتة كعادتها، شعرت بعدم ترحيبها في البداية فقد مضت دقيقة من الصمت وهي على الباب ونحن على الجانب الأخر. ثم بدأ يظهر على وجهها ابتسامة طفيفة حين نظرت إلى الأولاد.

- لم أكن أتوقع قدومكم اليوم، تفضلوا.

قالتها وتركت الباب مفتوح ودخلت ونحن خلفها.

- كيف حالك يا أمي؟
اقتربت منها وقبلتها.

- أنا بخير يا نادين، انتظرتك كثيرا.
قالتها أمي بنظرة لوم.

- أعتذر لكِ، أعلم أن العمل والأولاد قد أشغلني عنك.

جلسنا جميعا في غرفة الضيوف وللحظة تذكرت زيارات هشام بعد خطوبتنا في تلك الغرفة الصغيرة المكونة من أريكة باللون القرمزي، وكرسي صغير، وطاولة خشب وتلفاز قديم، كنا نجلس سويا نتحدث ونتحدث وكأن الكلام لا ينتهي أبدا وفي وسط الكلمات قد يقترب مني فجأة ليقبلني فأضحك في خجل، وانظر حولي وكأننا سارقان نختلس لحظة حب دون أن يرانا الضابط أمي أو المحقق شيرين.

مدت أمي يدها بعلبة الشوكولاتة لتعطي الأولاد والتي كنت أشك دوما في تاريخ صلاحيتها فهي هنا منذ زيارة شيرين وزوجها الأخيرة.
اقتربت أمي من حلا وملست على شعرها والتي عدّلته فور رفع يدها
- لماذا لم تخبروني يا أولاد بقدومكم، كنت جهزت لكم بسكويت الزنجبيل؟

- لم نكن نعرف يا جدتي حتى صباح اليوم.
قالها أحمد بعفوية.

نظرت أمي إليَّ نظرة طويلة قبل أن تبدأ حديثها، والذي دعوت بداخلي ألا يبد. الآن على الأقل:
- وجهك مريض صرت أبدو أصغر منك، هل أنتِ مريضة؟

- أرأيتِ يا أمي لقد لاحظت جدتي أيضا.
قالها أحمد في قلق.

- لا شيء يا أمي مجهدة قليلا.

- طبيعي! ذلك العمل الذي لا يقوى عليه رجل، طوال اليوم خارج المنزل كبائعي المناديل في إشارات المرور.

تنهدت قليلا ولم أجب حتى ألقت السؤال التالي المتوقع كبركان يلفظ حمما بركانية صغيرة قبل الانفجار:

- أين زوجك؟ لماذا لم يأت معكِ؟

- أبي قد وعدنا أن نذهب إلى الملاهي، لكن أمي قررت زيارتك.

قالت حلا.

- هشام يا أمي مشغول قليلا ربما في المرة القادمة.

وها وقت الانفجار قد حان:

- هشام لن يأت المرة القادمة يا نادين ، أنا أمك وأشعر بأن شيئا ما بينك وبينه تخفينه، أشعر بالحزن عليكِ عندما أنظر إلى اختك، كيف اختارت حياتها بالشكل الصحيح، زوج يحبها ووظيفة مرموقة في دولة أجنبية، ثم انظر اليكِ تذبلين أكثر في كل مرة أراكِ ،فلماذا أنتِ لستِ سعيدة باختيارك؟

شعرت وكأن ذلك الانفجار في قلبي، وددت لو أبكي على صدرها وأخبرها ببساطة بأني فشلت، وأني لم اختار شيئا، ولم أكن سوى ريشة في مهب الريح، والآن وبعد أن هدأت الريح صارت الريشة تحت الأقدام لكن دموعي كانت لتثير غضبها أكثر فتماسكت وأجبتها:

- ليس الآن يا أمي، ليس أمام الأولاد.

لا أحد يعلم أبدا تلك الطاقة المستنزفة من روحك فقط لتظهر للعالم انك بخير، وقد تنجح في إخفاء كل الندبات وتظهر دوما في ثوب الحياة بكامل اناقتك، لكن يظل من يعرفك جيدا، من يحبك دائما. يكفيه أن ينظر فقط في عينيك فتتعرى جراحك أمامه في طرفة عين، لتجد نفسك وجها لوجه مع ما حاولت اخفاؤه.

لم تؤلمني كلمات أمي بقدر إدراكي بأنني فشلت بعد كل محاولاتي لأبدو بمثل ذلك الثبات. فلم تعد مساحيق التجميل والابتسامة المفتعلة تكفي.

كل تلك الإشارات التي تقتحم طريقي: الكابوس، الاجهاد، أرقام المبيعات! كل شيء أصبح ناقوس إنذار يدق في رأسي بلا توقف، يخبرني بأن ذلك السكون الوهمي الذي عشت به لسنوات على وشك أن ينتهي، وأن العاصفة سوف تهب بلا شك، لا أدري من أي اتجاه أو إلى أي اتجاه ستحملني، لكني أشعر اقترابها في كل لحظة.

~~~~~~~~~~~

ليلة أخرى من العزلة.. من الصمت.. من ليالي الشتاء الباردة.
~~~~~~~~~~~

احتضنت حلا وأحمد وقصصت عليهم حكاية قبل النوم، تلك القصة الشهيرة عن الأميرة المسحورة في أقصى قلاع الأرض، تنتظر قبلة الأمير لتحييها.
قصصت تلك القصة من قبل مائة مرة ولكن اليوم كانت مختلفة،، كنت أشعر بجدران القلعة، كنت أشعر ظلامها الدامس يعانقني، كنت اتنفس أنفاس الأميرة الأخيرة..
غفا كلاهما قبل ظهور الأمير فلم أكمل القصة وكان جزء بداخلي يلتمس وصوله، ينتظر النهاية السعيدة ولكن لا معنى من تكملتها الآن.

حاولت النوم لكن ثقل الأغطية لم يكن كافيا لتدفئة قلبي المتجمد ، كنت أرتجف في صمت حتي سمعت صوت الباب يفُتح، فقد عاد هشام الي البيت بعد يوم طويل لم أعرف عنه شيئا.. أغلقت عيني وتظاهرت بالنوم حتى غفوت.

صارت حركة قدمي أبطأ.. الأرض تحتها وكأنها طين لين، فأصبح الركض أصعب.. صوت المنادي يزداد حدة رغم تصاعد صوت الرياح من حولي. لازلت أركض نحو ذلك البئر .. نحو نفسي المدفونة أسفل الأرض، ولغرابة الأمر كنت أرى كل شيء من حولي وكأنني أراه لأول مرة.

استيقظت الثالثة صباحا في نفس الفزع.. نفس النبض المتسارع.. نفس التعرق .. نفس اليأس.

بدأت الأفكار تتداخل في رأسي كدوامات تصب حول محور واحد.. محور الهروب..

الأن!

الثالثة صباحا!.

شيء ما يحركني، ينتزع صمتي، يحطم آنية السلام المصطنعة، شيء ما يصرخ بداخلي يرجو التحرر من هذا العالم..

ارتديت ملابسي على عجلة وكأن شيئا ما ينتظرني وأخشى فقدانه.. ودون تفكير وجدت نفسي أقود سيارتي لا أدري الى أين، فقط أقود أسرع فأسرع ، ضربات قلبي تتسارع وكأني لم أستيقظ بعد من هذا الكابوس.

بعد مرور أقل من ساعة بدأت أتنفس رائحة البحر اقتربت أكثر حتي وصلت إلى الشاطئ في منتصف الطريق خارج حدود القاهرة ثم توقفت. إنه نفس الشعور عندما توقفت نحو البئر وكأن هناك شيئا خفيا يهمس في أذني: لقد وصلنا!

كل شيء حولي كان معتما، فأقرب فندق على بعد عشرة كيلومترات، لا يوجد أي صوت سوى بعض السيارات المارة كل بضع دقائق..

اتجهت نحو الشاطئ الرملي، ولغرابة الأمر لم أكن أشعر بالخوف ولم أشعر بالبرد بنفس القوة التي شعرت به في منزلي. نظرت إلى البحر، وكان انعكاس النجوم يتلألأ فوق أمواجه الهادئة و للحظة شعرت بأني أتنفس!

صرخت بفرحة عارمة لا أفهمها:

- إني حية! إني أتنفس!

ثم جلست علي الرمال، ودون أن أشعر انهمرت في البكاء .. الكثير والكثير من الدموع تنهمر وكأنها أمطار طال انتظارها في أرض جرداء.

لا أدري كم مر من الوقت، وكأن الوقت أصبح خارج حدود هذا العالم، كنت في حالة أشبه بالسير أثناء النوم، حالة ما بين الغفلة واليقظة حتى لفت انتباهي شيء ما يلمع على الشاطئ كأنه القي من البحر للتو، لم يساعدني الظلام علي رؤيته جيدا فقط كنت أرى بريقا يومض وينطفئ بشكل منتظم. اقتربت أكثر فإذ بصندوق خشبي مدفون أغلبه تحت الرمال، لم أرَ الوميض من ذلك القرب، وبدأت أتحسسه في بطء، فشعرت بالكثير من الرسومات المحفورة والتي لم استطع أن أراها بوضوح، أثار فضولي كثيرا فحاولت انتزاعه من الرمال، لكنه كان ثقيلا للغاية مما زاد من اصراري لنزعه، حاولت الحفر من حوله بيدي، حفرت كثيرا حتي شعرت بألم شديد ولم استطع انتزاعه بعد!

ألقيت برأسي على الرمال من جديد حتى صار كل جزء مني ملطخا بالرمال؛ وجهي.. شعري.. ملابسي.. ولكن لا يهم كل ذلك فأنا بعيدة كل البعد عن تلك الأعين المراقبة، عن الألسن الناقدة، بعيدة عن كل شيء يخبرني كيف يجب أن أبدو،

بعد قليل زاد لمعان البريق حتي إنني شعرت به دون أن أنظر إلى الصندوق، فقد كان اشبه ببرق أضاء الشاطئ بأكمله لأقل من ثانية.

اقتربت من جديد وتلك المرة كان الصندوق بأكمله فوق الرمال، وتعجبت من حجمه، فقد توقعت أنه أكبر من ذلك حين حاولت انتزاعه، ولكنه كان صغير جدا، أشبه بصندوق مجوهرات جدتي، حملته أمامي واندهشت من خفة وزنه، لم يكن مغلقا بأي قفل، فقط رفعت الغطاء فانفتح.

أغلقت عيني فورا فقد كان البريق قويا للغاية، لكنه بعد قليل صار أهدأ، أو قد تعودت عيني عليه.

نظرت كثيرا أحاول أن أدرك محتواه؛ خمسة أحجار بألوان مختلفة، كلها تومض وتنطفئ في نفس الإيقاع!

لمست أول حجر كان في حجم كف يدي. كان شفافا أشبه بالماس، ويومض باللون البرتقالي، ملمسه في نعومة الرمل، وشكله غير منتظم وكأنه كُسر من حجر كبير بطريقة عشوائية.

فكرت قليلا أحاول أن أفهم إن كان ذلك الصندوق ذو قيمة ما، أم أنه فقد من أحد المسافرين يوما ما!

لكن الغريب أن الصندوق بدا في حالة جيدة، وكأن خشبه لم يلمسه الماء، في داخل الغطاء كان هناك حفر أخر، لكن ليس رسومات، بل حفر أشبه بكلمات؛ حاولت تحسسها لكني لم أصل إلى شيء!
أسفل الكلمات كان هناك مساحة فارغة، وكأن هناك المزيد من الكلمات لم تكتب بعد!

نظرت من جديد إلى الحجر في كفي ثم أمسكت الحجر الثاني وكان لونه شفافا أيضا، لكن بريقه مائل إلى الزرقة!

كان بنفس الشكل تماما، نفس الكسر الذي يبدو عشوائيا، لكن حين رأيت باقي الأحجار كانت القطع مماثلة تماما، فلا يمكن أن يكون كسرا عشوائيا! كل الأحجار كانت لها طرف مدبب حاد قليلا.

أمسكت بالحجر الأول وبدأت أرسم دائرة فوق الرمال، ثم تجمدت في مكاني لحظة؛ لقد تماسك الرمل داخل الدائرة بشكل غريب حتى أنني رأيت الأطراف التي فشلت في دورانها بشكل جيد!
نظرت للحجر من جديد في دهشة وفزع!
ثم شعرت بصوت داخلي يطلب مني الاستمرار كأنه نفس الصوت الذي يلازم أفكاري إنه صوتي لكنه مختلف عني كثيرا!

ودون أن أشعر وجدت نفسي أكتب أسفل الكلمات في ذلك المكان الفارغ، كتبت أول كلمة مرت في خاطري:
النجاح!
وكأني التمس من الحجر ان يحولها إلى حقيقة ملموسة مثل تلك الدائرة الرملية!
لكن شيء غريب قد حدث بعدها! لقد انطفأ بريق الحجر تماما
لم يعد يومض مثل باقي الأحجار ! بل إنه أصبح أشبه بصخرة بلا لون.

بدأ الأفق يتلون بلون الشفق، لابد وأنه قد مر ساعات على وجودي هنا، فالشمس على وشك أن تشرق!
فجأة شعرت كأني استيقظت نظرت حولي وتذكرت حلا وأحمد تذكرت كل شيء عن حياتي وكأني سمعت صوت المنبه يرن في أذني!
لقد عاد الوقت..
وقت الركض!

وضعت الصخرة في الصندوق وأغلقته وحملته معي إلى السيارة، كان رأسي مثقل كثيرا حتى أني لم أكن أقوى على التفكير في شيء. تحولت إلي الروبوت من جديد، وقدت سيارتي نحو المنزل في هدوء نفسي غريب لم أشعر به من قبل!

~~~~~~~~~~~~~~~~~~

كانت أشعة الشمس تتسلل ببطء كعنكبوت يلقي بخيوطه خلف الأفق في دهاء، كنت أقود بسرعة منخفضة و كأن شيء يمنعني من العودة، ظل أمر الصندوق يسيطر على تفكيري طوال الطريق، وشعرت للحظة بحماقتي وكأني غريق يلتمس الأمل من قشة، ليس سوى مجرد صندوق خشبي يحتوي على صخور بلا قيمة، لا معنى لشيء مما حدث، هكذا كنت أردد في سري وأنا ألقي به تحت الكرسي المجاور.

وصلت إلى المنزل وتسللت ببطء حتى لا يشعر بي أحد، لحسن حظي كانوا ينعمون جميعهم في ثبات عميق، تخلصت من آثار الاتربة بحمام دافئ فقد كنت أبدو كجثة خرجت من تحت الأرض، وبالرغم من أن كل شيء أنهكني، ولكني كنت أشعر بنشاط غريب.

قمت بتجهيز فطور مختلف تماما، فطائر العسل التي تحبها حلا ومعجنات القرفة التي طلبها أحمد منذ شهر وكنت اتحجج بالتعب دوما، جهزت الطاولة وكانت أشبه بحفلة عيد ميلاد ثم قمت بإيقاظ الاولاد وطلبت من أحمد أن يوقظ ابيه بعد أن توقفت دقيقة بجوار السرير محاولة إيقاظه لكن لساني كان يرفض حتى أن ينطق اسمه.

- أمي ما كل هذا؟ أنه اروع فطور على الاطلاق!
قالها أحمد وهو يقبلني.

- أخيرا يا أمي لن نتناول الجبن مثل كل يوم.
قالت حلا وهي تتناول فطيرة العسل بتلذذ.

نظر هشام قليلا إلي قبل أن يعلق هو الأخر:
- تُري ما سر ذلك النشاط على غير العادة.

نظرت إليه طويلا وقد بدأت أشعر بغصة في قلبي لا أفهمها ، كنت غاضبة منه كثيرا، ربما ازداد غضبي بعد ردة فعله حين أيقظته أرجوه أن يساعدني، شعرت وكأن روحي قد تعرت أمامه فجرحها عن قصد أو دون قصد لا يهم! لا أكرهه لكني تأكدت في تلك اللحظة أنني لم اعد أحبه وأن وجوده على تلك الطاولة يصيبني بالتوتر وودت في سري أن يرحل الآن... والي الأبد!
~~~~~~~~~~~~~~~~~~

البعض يظن أن المشاعر أمور مسلمة، وأن الحب لا يموت! يا له من فكر غبي فإذا كان صاحب الشعور نفسه يتغير آلاف المرات على مدار حياته وينتهي في الأخير، فكيف لجزء من إحساسه أن يبقى خالدا ينازع وحده سكرات الحياة؟!

~~~~~~~~~~~~~~~~

الفصل الثاني

لم تعد السماء رمادية، تحولت إلى لون أسود قاتم وكأنها قطعة من الفحم، وكأن النجوم قد احترقت وتناثر رمادها في بقاع الأرض! والقمر في طور المحاق أكاد استشعر وجوده لكني لا أرى له أثر...

ركضت أبطأ فأبطأ أقرب ما يكون إلى السير، كنت أخشى الاصطدام في هذا الظلام الكالح في أحد جذوع الأشجار المتناثرة في مكان ما، لم يكن هناك صوت لأي شيء لا لحشرات أو طيور أو حتى صوت خطي أقدامي.. شيء غريب حجب عن أذني السمع كما حجب عن عيني الرؤية...

كنت أشعر فقط بغرس أقدامي في شيء ما أشبه بالوحل حتى اصبحت أجد صعوبة في المشي، فكل خطوة أخطوها تنغرس أقدامي لعمق أكبر حتى تعثرت في شيء ما لم أستطع رؤيته، شيء أشبه بصخرة كبيرة أكاد أن أجزم أنها لم تكن هنا ذات يوم، سقطت على وجهي حتى استنشقت رائحة الطين قوية يتخللها بعض من رائحة الحريق، لم أشعر بأي ألم فقط حاولت النهوض لكنى فجأة استيقظت...

الثالثة صباحا!

يوم آخر من أيام الشتاء شديدة البرودة، كيف يمكن لليوم أن يحمل نفس ملامح الأمس! نفس التفاصيل الرتيبة.. ما رفضناه في الماضي يتكرر بكل أبعاده، اليوم وغدا والى الابد...

اتجهت في التاسعة صباحا إلى مكان عملي، وقد علقت بذهني تلك الصورة من الشاطئ ذلك المساء، وبداخلي رغبة عارمة أن أغير من اتجاه سيري إليه، لكني فورا ما طردت الفكرة حين طفت علي السطح صورة الاستاذ نبيل ببدلته الرمادية..

في المكتب كان كل شيء يسير كعادته، أعددت قهوتي السادة وقمت بتصفح البريد الإلكتروني مثل كل صباح حتى رن الهاتف وكانت سكرتيرة الأستاذ عادل مدير الفرع علي الخط:
~~~~~~~~~~~~~~~~

- صباح الخير يا نادين، الأستاذ عادل يود رؤيتك.

شعرت بغصة في حلقي ، لا أتذكر أن طلب الأستاذ عادل محادثتي شخصيا على مدار الثلاث سنوات الماضية. ترى هل أخبره نبيل بأرقام مبيعاتي فقررا التخلص مني! أم أن هناك نوع أخر من العقاب في انتظاري!

في طريقي إلى مكتبه كان يتسابق إلى ذهني عشرات السيناريوهات الدرامية، لكن لحسن حظي كانت المسافة الفاصلة بين مكتبي ومكتبه لا تتعدى ثلاث دقائق. طرقت الباب في حذر ودخلت فور سماع صوته بدعوتي.

الأستاذ عادل رجل في منتصف الخمسينات، علي قدر من الوسامة التي يمكن أن تخدعك للحظة بأن هذا الرجل لم يتجاوز الأربعين بعد، غير أن تلك التجاعيد العميقة تحت عينيه وخصلات الشعر الأبيض المتناثرة علي ذقنه الكثيف تجعلك تعيد النظر في عمره. دخلت مكتبه، وقد كان أكبر مكتب في الشركة، لأن حجم الغرفة ضعف حجم غرفتي والتي تضم أربعة مكاتب لي ولزملائي المُروضين.

كان يتحدث على الهاتف في جدية وتركيز عن شحنة جديدة من الصين قد تأخر في استلامها، حتى أنه نسي سيجارته مشتعلة في منفضة السجائر. لكن ذلك لم يمنعه أن يرحب بي بابتسامة سريعة ملوحا بيده لأجلس.

بعد دقائق أنهى مكالمته وتوجه بعينيه إلي قبل أن يبدأ حديثه بابتسامة عذبة:
- ما بكِ يا نادين؟ أشعر بتوترك منذ دخولك، أعلم أن كل تعاملاتنا السابقة كانت من خلال الأستاذ نبيل لكن لا بأس فلا شيء يستدعي ذلك القلق.

أخذت نفسا عميقا وحاولت تصنع ابتسامة، لكني لم أفلح فلم يطمئنني بداية الحوار بالرغم من محاولته.

أشعل سيجارة جديدة ثم أكمل حديثه:
- لدي عرض من أجلو، ولا أعلم إن كان هذا العرض مغريا بالنسبة إليكِ أم لا، ولكني لو كنت مكانك لم أكن لأتردد في الأمر.

بقيت صامتة وعقلي فارغ تماما من إي توقع لما يمكن أن يكون ذلك العرض.

- كما تعلمين.. إن الشركة في توسع مستمر علي مدار السنوات الماضية وقد جاءتنا فرصة ممتازة لفتح فرع جديد في سنغافورة عن طريق أحد المستثمرين، وقد تكون تلك الخطوة نقطة فاصلة في مستقبل الشركة ومستقبلك أيضا.

- مستقبلي؟ ما علاقتي بالأمر إذن؟

- لقد تم اختيارك في اجتماع المدراء لتكوني أنتِ مديرة الفرع الجديد.

سادت لحظة من الصمت، لكن تلك المرة كان هناك مئات الأصوات تتصارع في ذهني. وقد أحس عادل بذلك فقام بمقاطعتها لتكملة حديثه.
- الحياة هناك مختلفة تماما، فهناك نظام في كل شيء. جودة أفضل لحياتك وحياة أسرتك ومستقبلك الوظيفي.

- إذن يمكنني اصطحاب أسرتي معي؟
سألته دون تفكير وكأن هذا أول سؤال قد تطرق إلى ذهني.

-بالطبع، لكن هذا لن يحدث فور وصولك، كما أنه - لأكون صريحا معك - لن يسمح راتبك في البداية بذلك.

- ماذا تقصد في البداية؟

- أقصد أول سنة على الأقل.

لم أستطع تفسير شعوري في تلك اللحظة، كان بداخلي مزيج من المشاعر المتداخلة، فأن أصدق ما قاله عادل حقا أنها ستكون نقطة فاصلة في مستقبلي، والذي كنت منذ لحظات ما أرى فيه سوى ذيول الأمس، لكن ترى ماذا ستفصل تلك النقطة، وإلى أي اتجاه سيحملني التيار؟!

الكثير من الأسئلة في ذهني شلت قدرتي تماما علي الكلام حتي ساعدني عادل حين منحني فرصة للتفكير في الأمر، والعودة إليه في نهاية الأسبوع بقراري النهائي.

شكرته ومضيت إلى مكتبي وقد رأيت كل شيء مختلفا عن هذا الصباح، فجأة تغيرت نظرتي للأشياء، للناس من حولي، فكرت لِمَ لم يتم اختيار مي لهذا المنصب؟ ولماذا أنا؟ بتلك الأرقام المخزية التي كنت عرضة أكثر للفصل بسببها لا للترقية؟ هل حقا أستحق تلك الفرصة؟ يا الهي! ما كنت بحاجة لصخب جديد في عقلي المحتضر، أم تري ذلك الصخب هو بداية لحياة أخرى!!

في طريق العودة إلى المنزل كنت أفكر في كلام الأستاذ عادل حتى تذكرت فجأة ذلك الصندوق من الشاطئ، هل يمكن أن يكون للصندوق دور في تلك الفرصة؟

يا له من تفكير أحمق! لكنه لم يمنعني من إيقاف سياراتي في إحدى الشوارع الجانبية لتفحصه مرة أخرى.

حملت الصندوق بين يدي وكان يبدو أصغر من تلك الليلة، وتحت شمس الظهيرة بدت النقوش أوضح لكنها ما زالت غير مفهومة، فوق الصندوق كانت الرسومات محفورة بفنّ ودقة عالية، رسومات لأشجار كثيفة وشمس وقمر في اتجاهين معاكسين وفي الأسفل وسط الأشجار رسومات لأناس نحيلة للغاية بوجوه مثلثة و رؤوس بلا شعر أو أذان يبدو وكأنهم يتنازعون علي شئ أو مجتمعين حول شئ غير واضحة معالمه!

فتحت الصندوق فوجدت الأحجار تلمع في ألوان باهتة وبريقها أقل بكثير من ذلك اليوم، ما عدا الحجر الأول والذي قد انطفأ تماما، كانت المفاجأة حين نظرت إلى غطاء الصندوق الداخلي فلم أجد ما حفرته! كان المكان فارغا كما رأيته أول مرة، فيما عدا الكلمات المحفورة في الأعلى!!

أغلقت الصندوق ووضعته مكانه أسفل الكرسي ثم أمسكت بهاتفي لحظة أفكر بمن يمكنني الاتصال به لأخبره بكل ما يحدث لي فلم أجد سوي شيرين، أرسلت لها رسالة نصية بأن تحدثني فور رؤيتها لرسالتي ولحسن حظي كانت مستيقظة رغم فرق التوقيت بيننا.

أخبرتها بما قاله الأستاذ عادل في المكتب صباح اليوم، فردت عليّ بصوتها المشرق دائما:

- يا لها من فرصة رائعة! لا تفكري في الأمر، وافقي فورا، كم أنا سعيدة من أجلك. لكن كيف سيتلقى هشام الخبر؟ أخشي ألا يوافق، فهو يكره التغيير ويخشاه خشية الموت!

- ما دخل هشام في الأمر؟ أجبتها.

- ربما لأنه زوجك! كما أنه سيضطر لترك عمله والبدء في مكان جديد لا يعرف عنه شيئا.

- لن يظل زوجي.. ليس بعد الآن!

ساد صمت بيننا للحظات كدت أن أسمع أنفاس شيرين عبر الهاتف، كنت أعرف فيما تفكر. كنت أسمع عشرات الأسئلة عن كيف؟ متي؟ لماذا؟ لكنها اختصرت كل ذلك في جملة واحدة.

- إذن فلتعيدي التفكير في تلك الفرصة.

شعرت بالدمع يترقرق في عيني حتى أصبحت الرؤية ضبابية، وبصوت مخنوق قلت لها:

- أفتقدك كثيرا يا شيرين، كم أحتاج إليكِ.

- أنا أيضا يا نادين ليتني كنت بجوارك الأن، كيف صرنا غرباء؟ كيف صرت لا أعرف عنك شيئا سوى ذلك الحزن في صوتك الذي يوشي بكِ في كل مرة.

- إنها الغربة ! أجبتها
- بل إنها الأقدار!

- وما الفرق؟ ما الغربة إلا قدر ينتزعنا من رحم أوطاننا!

- ها قد صرتِ تتحدثين عن الغربة قبل أن تغتربي! قالتها شيرين بلهجة ساخرة.

- لقد تغربت كثيرا حتى ما صرت أدري إلى أي وطن أنتمي!

- كيف يا عزيزتي وأنتِ لم تتحركي خلف حدود مدينتك؟

- إن غربة الروح أقسى من غربة الجسد.

- لطالما خشيت من كلماتك عليكِ.

- لا تخافي فربما حان الوقت لغربة حقيقية.

~~~~~~~~~~~~

نركض خلف أحلامنا طويلا، وقد يطول بالبعض الركض حتى آخر العمر، وكثيرا ما تتعثر أقدامنا فنظل نقاوم ونحارب بكل ما نملك من أسلحة الصبر والأمل، ويظل الحلم هو ذلك الضوء الذي يلوح إلينا في نهاية نفق مظلم لنلحق به.. لكن ماذا عن لحظة الوصول؟ عند مواجهة الحلم وجها لوجه. عند لمسه حقيقة، وعيشه واقعا. أيظل ذلك الشغف يملؤنا؟ ولِمَ تلك الرهبة، رهبة اللحظات الأولي! أو ربما رهبة السؤال الذي نخشي مواجهته لاحقا... وماذا بعد؟

ذلك المساء كنت في مواجهة حقيقية مع حلم قديم جاءني علي طبق من فضة، أو على حجر مجهول. كان لايزال مقيدا بأصفاد الحاضر طالبا التحرر، لكن كسر تلك الأصفاد كان يلزمه انفجار. انفجار لطالما تأخر وقته لكني كنت علي علم بقدومه.
~~~~~~~~~~~~

ما كان يلزمني سوى ذلك الحلم كإشارة بأنه قد حان الوقت لتدمير الحاضر والماضي، والبدء من جديد.

كانت الساعة العاشرة مساءا بتوقيت القاهرة، الثالثة صباحا بتوقيت سنغافورة!

هشام في قوقعته اليومية أمام الحاسوب ينهي بعض الأعمال قبل النوم. جلست بجواره علي السرير ولم يلتفت إليّ. ظل غارقا في شاشة الحاسوب حتى قمت بإغلاقه.

- ما بكِ؟ ألا ترين أني أعمل؟

قالها هشام في غضب. كنت كمن وضع إبرة في فقاعة هروبه، فسقط فجأة على أرض الواقع.

- هناك أمر مهم أود أن أخبرك به. لقد عُرض عليّ السفر إلى فرع الشركة الجديد.

قلتها بثبات وعيني كل منا تحاول أن تكشف ما في جعبة الأخر.

- أين؟ وإلى متى ستبقين هناك؟

- أين؟ الى سنغافورة. أما إلى متى؟ سأظل هناك ربما -سكت قليلا قبل أن أجيب- إلى الأبد.

- إذن؟

قالها هشام وكأن ذلك الحوار كان ينتظره ويعلم إجابة كل سؤال فيه، بصرف النظر عن التفاصيل والتي لم تكن تعنيه في شيء.

- إذن.. فليمضي كل منا في طريق، لعل القادم يحمل لنا الخير!

أجبته و قد أبعدت عيني عن عينيه وشعرت بصوتي يرتجف.

ظل متماسكا ينظر اليّ ثم سألني عن مصير الأولاد،

أجبته بأنهم سيبقون معه في البداية حتى تستقر أموري، ويمكنه رؤيتهم بعد ذلك في الإجازات.

بقينا صامتين بعدها لدقائق مضت وكأنها عمر. عمر من الذكريات التي صنعناها سويا في الماضي. من لحظات الفرح والألم التي مرت بنا. من سنوات الحب والجفاء التي حلّت بأرضنا.

ثم حدث ما لم أكن أتوقعه أو انتظره حين أقترب هشام مني وعانقني بقوة ثم همس في أذني بصوت ضعيف:

- أعلم أنني خذلتك، لم أستطع أن امنحكِ السعادة التي حلمت بها، فليمنحك إياها رجل آخر أكثر إقبالا على الحياة. رجل مغامر يعرف كيف يفاجئ قلبك بهدايا الفرح في كل يوم! لكن شيء واحد أود أن تتأكدي منه - ربما لا يعني لك الأن- لكنك كنتِ دوما المرأة الوحيدة في حياتي.

لم أقوَ علي ضم ذراعيّ حوله بقيت متجمدة أشعر بذراعيه وكأنهما شعور بالذنب يطوقني به حتي يظل معلقا علي كتفي ما حييت.

~~~~~~~~~~~~

تلك الليلة نمت نوما عميق كما لم أنم منذ أشهر، وكأن عقلي قد استسلم أخيرا. نمت بلا أحلام بلا كوابيس. كرضيع خرج من رحم أمه للحياة ونام في سبات عميق بعد ليلة طويلة من البكاء.

لكن أين أمي؟

استيقظت عند طلوع الشمس علي صوت الهاتف وكنت أظنه حلم في البداية! أو هكذا تمنيت لكنه لم يكن..

- من المتصل؟

سألني هشام في فزع.

- المشفى! لقد تم نقل أمي إلى هناك في حالة حرجة.

قلتها وأنا أهرول في الغرفة أبحث عن اي شيء أرتديه.

- يمكنني توصيلك إلى هناك، لا تقلقي ستكون بخير.

قالها هشام وهو يقاوم النعاس مما زاد من توتري.

- فقط ابق مع الأولاد.

قلتها وأنا أغلق باب الغرفة بعنف.

~~~~~~~~~~~~

خرج الطبيب من غرفة امي بعد وقت طويل، نظر إلي سريعا وقد فشلت ملامح وجهه في ان تظهر أي نوع من الطمأنينة.

- أنت نادين ابنتها؟

سألني وهو يكتب شيئا في الملف وقد بدا لي كنوع من الهروب من النظر في عيني.

-نعم أنا ، ماذا بأمي؟

سألته وأنا أخشى الاجابة.

توقف عن الكتابة وكأن الكلمات هربت منه حتى القلم لم يسعفه من المواجهة

- وضع والدتك ليس مستقرا، لقد أصيبت بنوبة قلبية حادة وتركت كثيرا وحدها في وضع سيء، سنفعل كل ما بوسعنا.

لم أشعر بصدق كلماته، فكأنها محفورة في باطن ذاكرته ما كان عليه سوى استرجاعها.

دخلت غرفة أمي بعدها وشعرت بالدمع يتساقط من عيني دون أن أشعر فور رؤيتها، كل تلك الأجهزة الملتفة حولها وكأنها أفاعي تعلن اقتراب رحيلها، ذلك القناع الذي يمدها بالأكسجين، كيف يمكن للعالم ألا يمنحها القليل من الهواء لتبقى على قيد الحياة، كانت الغرفة مضاءة فقط بمصباح صغير أعلي السرير وصوت ضربات قلبها على الجهاز أشبه بإنذار بطئ.

اقتربت منها وأمسكت بيدها فبدأت تشعر بوجودي، كانت عيناها شاردة في الغرفة ولكنها فورا ما تشبثت بعيني لفترة طويلة ساد بها مزيد من الصمت، نزعت القناع عن وجهها وحاولت التحدث بصوت مرتجف وهي تضغط على يدي.

- نادين ... أنت هنا، خشيت ألا اراكِ.

حاولت أن أوقف ذلك السيل من الدموع قبل أن أجيبها:

- أنا هنا يا أمي.. لا تقلقي ستكونين بخير.

- ها قد رأيتك تبكين، فهل خففت الدموع من وجعك شيئا؟

تعجبت من سؤالها ، كنت اعلم أنها الوحيدة التي لديها القدرة على قراءة ما في قلبي حتى وان لم تظهر ذلك، حاولت تخفيف الأمر عليها فأخبرتها بترقيتي بابتسامة حزينة.

- مبروك يا صغيرتي، أعرف أنكِ انتظرتها طويلا، لكن احذري الهدايا المجهولة المنمقة بشريط ذهبي.

- ماذا تقصدين يا أمي؟ هل تظنين أنني لا استحقها؟

- اسمعيني جيدا يا نادين واغفري لي ذلات لساني، لقد كنت قاسية معكِ منذ كنتِ صغيرة، كنت أكره ضعفك وهروبك من الواقع، تمنيت أن تري الحياة كما هي وتتقبليها كما هي دون أن تحمِّلي قلبك ما لا يطيق، فسامحيني..

- أنا احبك يا أمي ولا أحمل في قلبي لكِ سوي المحبة والعرفان، لكني لم اختر قدري ، لم تعلمني الحياة درسا أكثر ما علمتني الاستسلام!

- لكنك لم تستسلمي بعد.. لازلت اسمع صراخ أحلامك منذ كنتِ طفلة حتي الآن، مازال الخيال يبحر بكِ بعيدا فتظلين معلقة بين الأرض والسماء، اريحي قلبك يا نادين .. النقصان هو سنة الحياة، لا شيء مكتمل ..حتى في أحلامنا.

شعرت بصوتها يضعف تدريجيا، كانت الكلمات تخرج منها أصعب فأصعب حتى صمتت فجأة وأغلقت عينيها وضعت القناع على وجهها، ظننت في البداية أنها أجهدت من الحديث حتى سمعت ذلك الصوت، لم يكن نبضات متقطعة بل صفارة متصلة أشبه بصراخ، وضعت رأسي علي صدرها وودت لو اختبأ بين أضلعها، جلست أبكي حتى شعرت بيد الممرضة تحاول إبعادي.

~~~~~~~~~~~~~~~~~~

في زي الحداد كلّ يرتشف قهوته في صمت، في شقة أمي اجتمع عدد قليل من الأقارب والجيران، وارتفع صوت القارئ يتلو الحزب الأول من سورة النساء. كلّ يمد يده بالسلام ينعي بملامح الأسي دون دمعة واحدة على سبيل الخطأ. فأي نوع ذلك من الرثاء!

لم تجب شيرين علي رسالتي بعد، لعل أكثر ما يؤلمها أنها لم تتمكن من وداعها. لعلها تدفع الآن أغلي ضرائب الغربة (الرحيل بلا وداع).

رحل الجميع وبقيت وحدي وسط المقاعد الفارغة. كنا أعداءً في زي محبين، لم يتمكن أحد منا من خلعه حتى في سنوات الهدنة، بقينا صامدين في وجه الأخر دون أن ندرك قيمة ما نفتقده وها أنا ألآن قد أدركت ذلك بعدما لم يتبق سوى رائحة الماضي، والتي كانت تشعرني سرا بالأمان.

دخلت غرفتها القديمة، والتي منعها عجزها المادي عن تجدديها منذ وفاة أبي، كانت الحوائط تبدو كوجه أصفر شاحب لامرأة عجوز، وكحل عينيها الأسود قد امتزج بالدموع وذاب فوق الجدران حتى صار جزءً منها! احتضنت وسادتها واستنشقت رائحة زيت اللوز التي كانت تفوح من شعرها، والتي قلما ما فكت عنه الرباط وكأنها تلجمه لتمسك بزمامه، تماما مثل كل شيء ترفض خروجه عن سيطرتها.
~~~~~~~~~~~~~~~~~~

ترقرق الدمع في عيني وأنا أسمع صوت شيرين وهي تركض في الغرفة لتلحق بي، وأمي تأمرنا أن نخفض أصواتنا كي لا يشتكي الجيران.
لم أكن اتعدى في ذلك اليوم ثمانية أعوام حين نادتني أمي لأجلس بجوارها على السرير، جلست وتوقعت أن تعاقبنا على صوتنا العالي، لكنها جذبت شعري برفق وبدأت في تضفيره وهي تخبرني:

- يجب إن يكون شعر البنت مرتب فهذا يعطي انطباع أن البنت مهذبة.

- لكن يا أمي لقد كبرت على تلك الضفيرة!

- لماذا لا تشتكي أختك منها؟

- ربما لأنها تصغرني.

- بل لأنها ليست كثيرة الشكوى.

وقتها دخلت شيرين الغرفة بحثا عني ثم جلست تنظر إلينا بأعين بريئة وهي لا تفهم سر غضبي.

سألتنا أمي السؤال المألوف عن أحلامنا حين نكبر؛ فأجابت شيرين بسرعة وأنا ما زلت أفكر.

- أود أن أركب الطائرة، وأزور بلدان كثيرة كتلك التي أراها في الأفلام.

ثم جاء دوري ولم أكن أعرف أي إجابة أختار، فقد كانت الأحلام تتسابق في ذهني، كل منها يود الخروج ليتحدث عن نفسه فأجبت في تلقائية:
-أود أن أصبح رائدة فضاء، أحلق بين النجوم وسط الأفلاك، ألمس الشمس والقمر وأعانق السحاب.

نظرت إلى أمي في دهشة ثم قالت:

- لا أحد يصعد إلى السماء سوى الأموات.

دخلت غرفتي في ذلك اليوم وبكيت كثيرا ، تذكرت أبي وسألت نفسي إن كان بإمكانه الآن أن يلمس السحاب، وتخيلت لو كان هنا وسمع حلمي لكان ضحك وعانقني، أو ربما كان ليشتري لي بدلة رائد فضاء وهمية، ويلعب معي رحلة الصعود إلى القمر.

لو يصنف الناس وفقا لأحلامهم، فأمي بلا شك من ذوات الواقع، لم تكن لترفع قدميها من على الأرض سوى مقدار درج السلم، والتي ما كانت تقوى على صعوده في أيامها الأخيرة.

عاد الصمت من جديد يخيم بجناحيه فوق المكان؛ ليسكت طنين الذكريات ويسقطني فوق أرض الواقع، لقد أصبح الأمر محزنا حد السخرية، تلك الحياة التي لم يتغير من تفاصيلها شيء على مدار السنوات الماضية قد انقلبت رأسا على عقب في أربع وعشرين ساعة. فقط بضعة ساعات كانت كافية للإطاحة بهذا الصرح الهائل من الروتين والهدوء المتراكمين على مدار عمر مضى.

فهل هذا ما تمنيت؟؟

~~~~~~~~~~

علي مدار الأسابيع التالية كنت أنام ليلا في غرفة أحمد وحلا، بينما أستعد في الصباح لإجراءات السفر. كنت أرتوي منهم كل يوم كصائم يشرب الماء فوق سعته قبل آذان الفجر لعله يمنع عطش النهار، لكن كثرة الماء لا تمنع عطش الصيام ولا مزيد من الذكريات يمنحنا السلوان وقت الفراق. فإننا لا نرتوي أبدا ممن نحب!

كانت الغابة مشرقة كما لم تكن من قبل، أشعة الشمس الحادة تخترق أغصان الأشجار الكثيفة لتلقي بظلالها علي الأرض. وكنت أنا هناك في جولة جديدة من الركض، كانت طاقتي قد عادت بقوة فكنت أركض بسرعة هائلة لم تسمح لي برؤية شيء، حتى إنني لم أدرك بأني كنت أركض في الاتجاه المعاكس، حتي وصلت الي نهاية الطريق، توقفت فجأة لأجد نفسي فوق حافة تل وتحت مني نهر على بعد أميال، يظهر كبقعة زرقاء بلا أبعاد مرئية، ثم شعرت بيد على كتفي فانتفض جسدي إلى الخلف. رأيت نفسي وجها لوجه مع أمي. كانت ترتدي ثوب عرس أبيض، ووجها يبدو أصغر بأعوام عن ذي قبل، تسمرت مكاني لحظة حتى أشارت لي نحو الاتجاه الآخر وكأنها تخبرني أنني ضللت!
وجدت نفسي أعانقها بقوة كنت استنشق رائحتها للمرة الأخيرة.

- أمي! لماذا لا يمنحنا الموت فرصة لنفرغ ما في قلوبنا قبل الرحيل؟ سامحيني يا أمي.

شعرت بذراعيها تطوقني دون كلمة منها فتابعت:

- كم تمنيت أن أكون قوية مثلك، لقد كنت أغار من قدرتك علي تحمل الحياة بصبر وحكمة لم أرثهم. لقد أنهكتني الحياة فهل يسع لي رحمك الأن؟

رفعت رأسها نحوي وبعدت قليلا ثم أجابتني بحدة صوتها:

- بل أنهكتك أحلامك!
~~~~~~~~~~

اختفت صورة أمي فجأة وبدأت الأرض تهتز تحت أقدامي، كنت على وشك السقوط من أعلى حتى استيقظت فزعة أتنفس بسرعة هائلة. وقد شعرا بي الأولاد فاستيقظوا معي.

-أمي، قلبك ينبض بقوة، هل أنتِ بخير؟
قالها أحمد ورأسه علي صدري.

- نعم يا حبيبي، فقط حلم سيء.

- بماذا حلمتِ يا أمي؟
قالت حلا وهي تتثاءب.

- لا شيء يا صغيرتي.

- هل سفرك هذا ضروري؟
سألني أحمد.

- نعم يا حبيبي، إنها فرصة رائعة لنا، كل شئ هناك أفضل. المدارس.. البيوت ..الطرقات، كما أننا سوف نمتلك الكثير من المال لشراء كل ما نحلم به.

- وهل هناك ملاهي وألعاب؟
سألتني حلا
ضحكت وأخبرتها بأنه سيكون هناك الكثير.

- متى سنلحق بكِ نحن وأبي؟
سألني أحمد ما كنت أخشاه.

- بعد ثلاثة أشهر ربما، لكن أبيك لن يتمكن من السفر، فقط أنت وأختك.

- لكن يا أمي.. لماذا ؟ ألا يمكن أن نبقى هنا جميعا.

كنت أتجنب تلك الأسئلة طوال الوقت، لم أكن أعرف كيف أشرح لطفلين ما لا أستطيع شرحه لنفسي.
-كفا أسئلة! هيا عودوا إلى النوم ! ما زالت الساعة الثالثة صباحا، ولديكم مدرسة في الصباح.

- كم أتمني ألا يكون هناك مدرسة في هذا المكان الجديد.

قالتها حلا وهي تدخل في النوم.
لكن أحمد ظل مستيقظا حتى الصباح، كنت أسمع ضجيج الأسئلة في رأسه وأنا أتظاهر بالنوم.

~~~~~~~~~~~~~~~~~~~

الأول من مارس، القاهرة – أبوظبي - سنغافورة، الساعة الثانية عشر ظهرا بتوقيت القاهرة، رحلة اس ٢٠٢:

أمسكت بتذكرة السفر بين يدي كأسير ممسك بمفتاح زنزانته، أو ربما كمريض ممسك بدواء فيه أمل شفاؤه.
كانت تذكرة الهروب حلم حملته في باطن عقلي لشهور وقد حان موعد ولادته، لا مانع من آلام المخاض فحين ألمسه واقعا سيتقهقر احساس الألم ومع الوقت ستختفي ندبات الجرح وكأنه لم يكن.

قمت بتجهيز حقائبي في ليلة السفر وكنت على حرص أن أترك ذكرياتي بعيدا عنها؛ فكنت أتجنب أي شيء يمكنه إثارة ذاكرتي. لا أريد صورا من الماضي في إطارات الفرح، ولا عطورا يحملني شذاها إلى ما مضي من عمر، ولا كتبا قرأتها يوما في لحظة يأس. فإن نجحت في حجب الكلمات والروائح والصور فما عادت الذكريات لتجد ثقبا تصل إليّ منه.
ثم تذكرت أمر الصندوق في سيارتي، في البداية ترددت في أمره لكني قررت أخذه معي، علَّني يوما أكشف لغزه، كما أنه لا يحمل معه سوى ذكرى الشاطئ، فلا مانع من ذكريات الهروب للهروب.

كنا في بداية فصل جديد وبرودة الطقس تراجعت كثيرا، في التاسعة صباحا كنا قد اقتربنا من المطار. أحمد وحلا يجلسان في الكرسي الخلفي للسيارة، أحمد متأملا الطريق وحلا نائمة.
- سوف أقوم بإجراءات الطلاق في الفترة المقبلة، لا تقلقي لم أنس.
قالها هشام بعد أيام طويلة قد حجبه الصمت عني منذ أخر مرة تحدثنا فيها عن سفري.

-لا بأس! فقط أعتني بالأولاد جيدا، امتحانات أحمد الشهر القادم.
أجبته وأنا أشعر بالغضب من فتح موضوع الطلاق أمام الأولاد، فحاولت أن أخفف حدة الحوار بتبادل أطراف الحديث مع أحمد عن الطائرات، ثم أوصته بأخته حتى أراهم.
تذكرت شيرين وطرأ في ذهني خاطر غريب عن عدم ردها على رسائلي، فربما هي غاضبة مني، فهي دوما ما كانت تتهمني بالتقصير نحو أمي! ربما شعرت بأنه كان بإمكاني انقاذها لكن كيف؟..
أرسلت لها رسالة أخرى:
~~~~~~~~~~~~~~~~~~~

(لا أدري ما سر صمتك! لعل الحزن فقط ما قد منعكِ عني. أنا في طريقي إلى عالم جديد فأدع لي)

بالرغم من اختلاف طباعنا لكن شيرين كانت صديقتي المقربة، كنت أبوح لها بكل ما في قلبي، كنت أسمع في صوتها نحيب عقلي، فدائما ما كانت تواجهني بكل ما أحاول الهروب منه، أذكر ذلك اليوم حين أخبرتها بقرار زواجي من هشام فكان ردها:

- هذا الرجل رائع لكن ليس لكِ، سيقتلك معه الروتين، وستدفنين أحلامك بيدك تحت فراش الزوجية، يستطيع أن يمنحك حياة رائعة، لكنها لن تتعدى جدران غرفتك.

لقد استطاعت شيرين أن تقرأ مستقبلي في الوقت الذي حجبته عني مشاعر الحب المشتعلة لأول رجل طرق بابي، والتي سرعان ما انطفأت بعدما أغلق الباب وصرنا وحدنا خلفه.

لا شك أن سفرها بعد زواجها أبعد المسافات بيننا فما كانت مكالمتنا تتعدى دقائق معدودة، لم أعد أعرف الكثير عن تفاصيل حياتها لكني كنت على علم بأنها تعيش أحد أحلامها القديمة، والتي لحسن حظها كان حلم زوجها أيضا، أو ربما ليس حسن حظ بقدر ما هو حسن اختيار؛ فقد اختارت من يستطيع التواصل مع عقلها وليس من يعزف على قلبها بلحن جديد، كتلك الأغاني الحديثة والتي ما تكاد تنتشر في كل مكان كوباء معلق في آذاننا حتى تختفي فجأة وكأنها لم تكن.

لم تطل لحظات الوداع كثيرا، قبلت الأولاد وأوصيت هشام ببعض وصايا الأمهات و طمأنتهم ونفسي أنها فترة قصيرة إلى أن نلتقي.

اتجهت نحو المطار ومنعت نفسي من الالتفات إلى الخلف خشية البكاء، فقد كنت أعلم أن صورتهم ملوحين اليّ في تلك اللحظة قد تتسلل الي عقلي وتستوطن فيه سرا؛ لتطاردني كل يوم في نفس التوقيت، أو تلحق بي ليلا عند النوم، فما من مهرب آنذاك حتى لو غادرت كوكب الأرض.

فور دخولي للمطار تجمدت لحظات في مكاني من شدة الزحام، أناس بمختلف الأجناس والأعمار، لكلّ حكاية يخفيها بين طيات قلبه ووسط الأوراق وبين أختام الخروج والدخول تتشابك الحكايات، وبين أمنية الرحيل والبقاء تشرد العقول وتنضب بالذكريات وقت الهبوط والإقلاع.

شعرت بدبيب خفي في قلبي. وسط الظلام الدامس شعرت بالفرح ينساب وسط أوردتي وكأني تناولت جرعة ما من مادة مخدرة فشعرت بالانتشاء.

انتشاء الحرية.

لأول مرة منذ أن أدركتني الحياة أدرك معنى الحرية!

يا الهي.. أنا حرة!

لا مزيد من صباحات باردة بلا كلمات، لا مزيد من ليال مضنية في ذلك السرير الذي تآكل عمري وسط أغطيته ووسائده، لا مزيد من وجه الأستاذ نبيل القبيح وصوته الكوميدي وأرقامه التعجيزية، لا مزيد من التظاهر بأن كل شيء بخير، لا مزيد من الاحتراق في كل يوم، لا مزيد من الركض، لا مزيد من الغابات .. أنا حرة فليرقص قلبي رقصة الفرح وليعلم كل من حولي بأني ربما قد فقدت عقلي ولكني ربحت الحرية.

~~~~~~~~~~

الفصل الثالث

أربع عشرة ساعة وسط السحاب، ما بين غروب الشمس وشروقها غفوت عشرات المرات حتى هبطنا أخيرا في مطار تشانجي الدولي الثامنة صباحا.

كان كل شيء حولي مختلفا وله رائحة جديدة، استقبلتني حديقة على مساحة هائلة فور دخولي تتراقص بها الأوراق الخضراء على نغمات كلاسيكية فوق بحيرة صناعية صغيرة، وأجنحة اليعسوب تتمايل مع الأغصان لتكتمل كلوحة فنية مفعمة بالحياة بألوان زهور الأوركيد البنفسجية وزهور النرجس الصفراء، وعلي الجوانب تظلل أشجار النخيل العالية المكان؛ وكأنها تحميه بأوراقها العريضة من تقلبات السماء...

كان هناك الكثير من الحدائق هنا وهناك، وبعض المتاحف الصغيرة للتحف والكريستال، وكراسي للاسترخاء لتدليك ظهرك وقدميك بعد رحلة طويلة، وأماكن مختلفة للتسوق ومطاعم من مختلف البلدان. كنت أشعر أني في مدينة كاملة تثير فضولي للتعرف عليها لكني لم أكن أملك الوقت ولا المال لذلك الأن.

في الخارج كان بانتظاري السيد عبد الرحمن مالك الشركة في سيارة خاصة، عبد الرحمن رجل أعمال عربي في منتصف الخمسينات، لم أره في حياتي سوي مرة واحدة أثناء زيارته لفرع الشركة في القاهرة، ملامحه تميل إلى الغرب أكثر، ربما له أصل أوروبي. وجه أبيض مائل إلى الشحوب، وعينان بلون رمادي وأنف عريض
~~~~~~~~~~

متورد يخفي الكثير من ملامحه. لم أعرف عنه الكثير من قبل لكن كل ما سمعته عنه خلال فترة عملي أنه رجل خلوق ودؤوب ولا شيء يعنيه في الحياة أكثر من النجاح.

- حمدا لله علي السلامة يا نادين.

كان واقفا أمام السيارة في انتظاري و يده ممتدة لمصافحتي.

- شكرا لك يا سيد عبد الرحمن، أتمني ألا تكون قد انتظرت كثيرا.

- لا عليكِ، أنا في سنغافورة منذ أكثر من شهر في انتظارك فلا بأس إن انتظرت في المطار بعض الوقت.

قالها وهو يفتح الباب الخلفي ويدعوني للركوب.

كان الطقس حارا ورطبا كثيرا، لم أكن لأتخيل أننا مازلنا في بداية الربيع، أو أنه ربما لا يوجد فصول هنا في هذا الطقس الاستوائي الصاخب. جلست في الخلف بجواره وهو يطلب من السائق التحرك.

تحدثنا أثناء الطريق عن الفرع الجديد، وكيف ستكون ساعات العمل والإجازات، ثم سألني عن حياتي والأولاد فشعرت بقبضة في قلبي لكني حاولت ألا أظهر أية مشكلة حتى لا تثير قلقه، فهو لازال لا يعرفني، وانتبهت من دهاء أسئلته بأنه يحاول أن يعرف أكثر إن كنت جديرة بتلك الفرصة، فربما تردد في البداية عند عرضهم اسمي لتحمل تلك المسؤولية، فالرجل دائما ما يخفف من قدرات المرأة، ومهما كان نجاحها فإنه لا يراها سوي أما وزوجة.

ساد بعض الصمت وانتهزت الفرصة لمشاهدة المدينة، تلك الجزيرة الساحرة كانت مزيجا من الخضرة وناطحات السحاب، وكأنها قد جمعت بين الطبيعة والتطور، أو أن تلك الحدائق محاولة منهم لتخفيف أضرار التحضر!

قطع عبد الرحمن حبل أفكاري وهو يخبرني أن المسافة بين الشركة والمنزل الذي استأجره من أجلي أكثر من نصف ساعة، ثم نصحني باستخدام المواصلات العامة أو المترو لتوفير المال والوقت فالكل هنا يفعل ذلك.

شكرته علي ثقته في، وتمنيت أن أكون عند حسن ظنه أو بالأحرى أن أخيب سوء ظنه!

- ها قد وصلنا.

قالها عبد الرحمن وقد توقفت السيارة عند إحدى البنايات المرتفعة في شارع جانبي، كانت باللون الأبيض و تبدو قديمة بعض الشيء، فلم تكن واجهتها زجاجية مثل تلك البنايات التي رأيتها أثناء الطريق.

مد يديه بالمفتاح.
- شقتك رقم ١١٤ الدور الثاني والثلاثون، استريحي اليوم وأراكِ غدا في الشركة.

كانت شقتي في ممر عريض يحتوي على خمسة شقق أخرين، لم ألمح أحدا من الجيران، لكن رائحة البهارات والأكل الهندي تفوح في المكان.

استطعت أن أري كل تفاصيل الشقة فور فتح الباب فهي لم تكن شقة. كانت أشبه بغرفة صغيرة لا تتعدي مساحتها عشرون مترا، حتى أن حقيبتي قد اصطدمت مرتين في الحائط أثناء دخولي.

كانت هناك أريكة صغيرة في المدخل، وأمامها تلفاز صغير بجواره موقد كهربائي أعلاه خزينة لا تتعدى نصف متر يبدو أنه المطبخ، ثم سرير صغير في اتجاه باب الغرفة، بجواره كابينة مغلقة لا تتعدى مترين كانت الحمام، وفوق السرير خزانة أخرى ممتدة بعرضه، بجوار السرير من الناحية الأخرى نافذة عريضة تمتد مترين مغطاة بستارة حمراء قديمة من الستان. كانت الجدران ملونة بلون أبيض باهت، وفي السقف مصباحين صغيرين؛ واحد فوق الأريكة والأخر فوق السرير.
تفوح رائحة غريبة رطبة أشبه بعشب مبلل بعد ليلة ممطرة، حاولت فتح النافذة لتهوية المكان لكن الشمس قد اشتدت حرارتها فلم أحتمل سوي دقائق فقمت بإغلاقها.

يا الهي ! أين سينام أحمد وحلا؟
كان هذا أول ما خطر في بالي، تركت حقيبتي عند الباب ونمت علي السرير منهكة من طول الرحلة، لم أكن أقوى على التفكير في شيء في تلك اللحظة.

~~~~~~~~~~~~~~~

مرت الليلة هادئة، رتبت أشيائي قدر الإمكان وهاتفت الأولاد لأطمئنهم في المساء.

في الصباح كنت في طريقي للعمل في إحدى الحافلات العامة والتي كانت تبعد عن بيتي بضعة دقائق. كان الصباح مختلفا تماما ، كل شيء مفعم بالحياة، بداخلي الكثير من المشاعر. كنت أتأرجح بين الحماس والخوف، بين الفرح وحزن خفي.
استقبلت رسالة شيرين:
(أنا بخير عزيزتي، لكن وفاة أمي قد شلت لساني ..لا أصدق أني لم أستطع وداعها. افتقدك كثيرا واتمنى لك السعادة في حياة من اختيارك)
~~~~~~~~~~~~~~~

لم أفهم قصدها في (حياة من اختيارك) لكني تجاهلت الرسالة وبقيت متأملة الطريق عبر النافذة، مئات الناس العابرة هنا وهناك بملامحهم الأسيوية وأجسادهم الصغيرة. حركة دائمة في الطرقات المزدحمة رغم حرارة الطقس وسط المباني الشاهقة والحدائق الخضراء.

وصلت الشركة وكانت في إحدى ناطحات السحاب المغطاة من الخارج بأشكال هندسية مختلفة الأبعاد من الزجاج العاكس لأشعة الشمس. شممت رائحة الدهان الجديد فور دخولي. كان في المدخل مكتب استقبال صغير، وسكرتيرة ابتسمت لي مرحبة، يبدو أنها كانت على علم بوصولي فأشارت لي على مكتب في أخر الممر، مكتب عبد الرحمن أو مكتبي بعد سفره. في طريقي إليه مررت بقاعة كبيرة بها ستة مكاتب يفصلهم حاجز صغير. نظر لي الموظفين من خلف أجهزة الحاسوب في فضول وعلى وجوههم ابتسامة ثابتة. لاحظت أن كل العاملين بما فيهم السكرتارية من أصل أسيوي ماليزيين وصينين وأغلبهم أناث عدا رجل واحد من أصل عربي يبدو قريب لعبد الرحمن، وقد عرفت بعد ذلك أنه مدير الحسابات ومكتبه يقع في زاوية منفصلة عن باقي المكاتب.

اجتمعت بعدها مع عبد الرحمن وقد عرفني دوري في الشركة ودور الموظفين. أخبرني بأنه سيمكث أسبوعا أخر قبل سفره؛ حتى يطمئن أن كل شيء علي ما يرام.
ما سمعته عن عبد الرحمن من قبل عايشته حقيقة، فهو فعلا رجل ودود ومتعاون، ولا يهمه سوى نجاح شركته دون التدخل في أي أمور شخصية لا تعنيه في شيء.

علي مدار أسبوعين كان كل شيء يسير دون عقبات، أعتدت بسهولة غرفتي الصغيرة ومكتبي والطقس الحار، لم يكن يعكر صفو أيامي سوى التفكير في الأولاد. كنت أفتقدهم بشدة حين أرى طفلا في عمر أحمد مع أمه في مطعم أو مركز تسوق، أو حين أري فتاة صغيرة في عمر حلا معلقة يديها فوق كتف أبيها في دلال.

~~~~~~~~~~~~~~~~~

بعد سفر عبد الرحمن صار كل شيء - ولأول مرة - تحت يدي، كان شعور القيادة يملؤني بالثقة والخوف معا! فها قد صرت أنا من يضع الأرقام، أنا من يلقي بالكرة ليلهث الآخرين نحوها، كنت أسمع ضحكات حلمي في كل حركة من حركات كرسي المكتب الدوار، كنت أتنفس نشوة الانتصار على أرقامي الهزيلة، كنت أشعر وكأني أسير فوق جسد مي النحيل، وأنف الأستاذ نبيل، وثلوج هشام.

اجتمعت بالموظفين في ذلك اليوم على طاولة الاجتماعات الصغيرة في مكتبي، على يمين الطاولة ويسارها جلس الست نساء الأسيويات وعلى وجوههم ابتسامة،
~~~~~~~~~~~~~~~~~

وأعينهم تلمع في فضول، كنت أنا على رأس الطاولة وعلى رأس الطاولة المقابل كان يجلس عبد العزيز المدير المالي.

كانت أعمار الموظفات تتراوح بين الثلاثون والأربعون بالرغم من صعوبة تحديد أعمار الآسيويين، فلولا امتلاكي سيرتهم الذاتية لقلت أنهم لم يتعدوا العشرين بعد.
أما عبد العزيز فكان في منتصف الأربعينات ذو بشرة سمراء وشعر قصير يكشف عن جلد رأسه، له لهجة خليجية ويتحدث الإنجليزية بصعوبة.

شعرت في نظراته بالتحدي، فهو بلا شك كان من المعارضين على وجودي هنا، بدأت الحديث عما نطمح في تحقيقه في الفترة المقبلة، وضعت خطة أرقامي الواقعية ودور كل منا في تحقيقها، كان الجميع يصغي باهتمام ويدون ملاحظاته، حتى قاطعني عبد العزيز في محاولة منه لإحباطي:

- لا شك بأن لديك خبرة في السوق المصري، لكنك قد تحتاجين إلى المزيد من الوقت للتعرف إلى السوق هنا، فالوضع مختلف تماما.

حاولت أن أكون هادئة فطلبت منه التحدث بالإنجليزية حتى يستطيع فهمه الجميع، ثم ترجمت لهم ما قال كي أثبت له إنه لم ينجح في إحراجي، ثم أجبته بصوت بارد:

- لقد درست السوق جيدا قبل أن أضع تلك الأرقام، وبالطبع سوف نحتاج إلى دعم خبرتك، فإن كان لديك أي اعتراض فيمَ قلت فلتتفضل بطرحه!

سكت عبد العزيز بعد أن أسقطت الكرة عنده، وكنت أعلم أنه يفتقد الخبرة، فما فهمته من عبد الرحمن قبل سفره إنه هنا منذ أشهر قليلة، وأن خبرته محدودة أيضا.

انتهى الاجتماع الأول على ما يرام ولم يزدني عبد العزيز سوى تحدي لتحقيق النجاح، لا شك بأن وجود بعض الأعداء يثير غرائز القطط بداخلنا، فالمتعة الحقيقة ليست في القبض على الفريسة بقدر متعة الترصد بها حتى تقع تحت براثننا.

~~~~~~~~~~~~~~~~~

١٦ مارس عيد ميلادي السابع والثلاثون..

لا أدري سر ذلك العداء بين الوحدة والأعياد، يمكنك أن تبقى وحيدا طوال العام لكن احذر الأعياد! فيها تخرج وحوش الوحدة من جحورها بعد منتصف الليل، تختلي بك بعيدا عن أصوات الألعاب النارية، خلف مظاهر الفرح وزينة الشوارع. فقط في الأعياد يملؤك الفراغ من شعرات رأسك حتى اخمص قدميك.. ستذكر كل قلب مر بك يوما ورحل، ستذكر كل ما ظننت يوما أنك نسيت.
~~~~~~~~~~~~~~~~~

وها أنا الأن في عيد ميلادي وحيدة كما لم أكن من قبل، جلست أتأمل مشهد المدينة من نافذة غرفتي. كانت تنبض بالنور وكأن الليل لم يأت بعد، مصابيح فوق المباني، ومصابيح علي الوجهات، ومصابيح أعمدة الشوارع، البعض ينطفئ ويضئ في وقت منتظم والبعض لا ينطفئ. بألوان قوس قزح تفاوتت الألوان ما بين الأصفر والأزرق والأخضر حتى تظن أن اليوم عرس المدينة. لكني لم أكن أملك المال أو الرفقة لحضور ذلك العرس، لمحت ظلي على النافذة، وفكرت في سخرية القدر؛ لقد أصبحت مديرة شركة لكني ما زلت مفلسة. ما زلت أما على الأوراق ولكن بلا زوج أو أبناء.

تذكرت الصندوق الخشبي الذي أحضرته معي، كنت قد وضعته أسفل ملابسي في الخزانة. فتحت الصندوق وأمسكت بالحجر الثاني كان يتلألأ بلون أزرق وكأنه عصفور ينبض في كفي. كتبت بسنه المدبب في المكان الفارغ كما كتبت من قبل، لكن تلك المرة كنت أحلم بشيء آخر؛ كنت أحلم بشيء ينتزعني من وحدتي ويحرك مشاعري الراكدة طوال السنين الماضية. تلك المرة كتبت: الحب.
انطفأ الحجر بعدها كالحجر الأول وأصبح عديم اللون، وضعته في مكانه وأغلقت الصندوق.

شعرت في البداية بسخافة الأمر، لكن لا بأس فالبعض يكتب أحلامه في مفكرته الخاصة، والبعض يكتبها في ورقة ويلقي بها في الهواء، والبعض يهمس بها لعملة معدنية ويلقي بها في بئر مسعود، أو يتجه نحو الأضرحة ليهمس بأمنيته للأموات، أو ربما يحتفظ بها سرا ثم يطفئ شمعة في عيد الميلاد. أما أنا فقد وضعت حلمي في ذلك الصندوق حقيقة كان أو خيال، نحن نطمئن بتحرير الحلم من داخلنا ليمضي رحلته في الفضاء، وحول العالم، وتحت التراب، وخلف الأمواج، لعله يعود يوما متجسدا في الواقع.

~~~~~~~~~~~~~~~~~~~~

في مساء عطلة الأسبوع حملني الحنين من قلب هذا الجو الآسيوي إلى شارع العرب؛ باحثة عن أي ذيول لوطن خشيت أن أنسى ملامحه. كان المطر ينهمر بقوة يقلل من حدة الحر، ويزيد من رطوبة الجو ورائحة العشب المبتل. لمحت فور دخولي مسجد السلطان بقبة ذهبية دائرية، تنساب من فوقها قطرات المطر فتزداد لمعانا تحت أشعة المصابيح البيضاء.

سرت بين المحلات تحت مظلات الخيام الممتدة على طول الشارع، كان الطابع العربي يفرض نفسه وسط الأقمشة الحريرية من الشام، والسجاد المزخرف يدويا من المغرب وإيران، ورائحة العود تفوح من مكة المكرمة، والزي الفرعوني والتحف على شكل أبي الهول والأهرامات تعيدك الى جو الحسين وخان الخليلي. أما
~~~~~~~~~~~~~~~~~~~~

علي الجانب الأخر فكانت تمتزج روائح الأكل العربي بين بهارات الكبسة ورائحة خبز الصعيد ودقة الكشري المصري. كنت أشتهي أن آكل شيئا أعرفه، وأشتهي أكثر أن أطلب الطعام دون قلق إن كان حلالا أم لا.

جلست في أحد المطاعم المصرية، انتظرت النادل كثيرا، ولكن من شدة الزحام لم يعيرني أي اهتمام، فهممت بالرحيل عندما سمعت صوت من خلفي ينادي.

- مدام. هل حدث ما أزعجك؟

كان رجلا في نهاية الأربعينات من عمره، وجهه أبيض نحيل وعيناه عسليتان فيهما بريق غريب. خصلات بيضاء تتخلل شعره الممشط للخلف ولحيته القصيرة مما زاده وسامة ووقار.

شعرت بإحراج شديد لا أعرف سببه، كما لو كنت سرقت شيئا ما وقُبض علي.

- لا شيء، المكان مزدحم ولا يوجد نادل متاح.

أجبته وأنا أتجنب النظر في عينيه، كنت أخشي أن يظهر الارتباك على وجهي.

- أعتذر لك، وأتمني أن تتفضلي معي سأقوم بنفسي بخدمتك. أنا شريف مدير المطعم، ولا يمكنني أن أترك مصرية مثلي ترحل غاضبة من مطعمي. ثم مد يده لمصافحتي. ارتبكت قليلا قبل أن أمد يدي ثم ابتسمت وشكرته.

دخلنا سويا إلى المطعم وسحب كرسيا من إحدى الطاولات ودعاني للجلوس بابتسامة، ثم تفاجأت عندما جلس في الكرسي المقابل أمامي. كنت أشعر بألفة غريبة تجاهه، ولا أعرف أن كان ذلك بسبب لهجته المصرية وملامح وجهه التي بعثت في قلبي دفء الماضي وأثارت المزيد من الحنين للوطن.

لوح بيديه إلى النادل فهرول إلينا مسرعا، نفس النادل الذي تجاهلني منذ قليل، قال له إنني إحدى أقاربه من مصر، وأمره بتحضير طبق شهي يليق بي.

- هل أنت ودود هكذا مع كل المصريين؟

سألته في تعجب من لطفه الزائد.

ضحك في خجل ثم قال:

- لا، ولكني وجدتك وحدك وشعرت أن المكان جديد عليكِ.

- شفقت عليّ إذن! قلتها ساخرة

- لا.. ليس كذلك، فقط أردت مشاركتك ليس أكثر.

ساد صمت بيننا لحظات ثم قاطعه سائلا عن اسمي.

تحدثنا عن المدينة وعن عمل كل منا، أخبرني أنه يعمل هنا منذ عشرة أعوام، وأنه قد ترك مصر في ظروف مشابهة لظروفي بعد أن انفصل عن زوجته وترك لها ولدين توأم في الجامعة الأن، فأخبرته بدوري عن أحمد وحلا.

جاء النادل وهو يحمل أطباق كثيرة من المشويات والمحاشي والسلطات وعصير البرتقال.

- ما كل هذا؟ هذه الوليمة تكفي عشرة أفراد!

سألته مندهشة.

- هذا اعتذار مني عن مضايقة النادل لكِ، وأتمني أن تكون بداية صداقة - إن تسمحي - مثل ما يقولون في مصر (يكون بينا عيش وملح).

ابتسمت و أجبته دون تفكير:

- بالطبع يسعدني ذلك.

لا أعرف كيف أجبته هكذا بثقة، كان الحديث معه ممتعا ومشوقا، خاصة بعد كل تلك الليالي التي قضيتها وحدي لا أجد من أتحدث إليه، فقد كنت أنا بحاجة أكثر منه لتلك الصداقة.

بعد الانتهاء من العشاء أوصلني إلى محطة الحافلات، وسط أحاديث كثيرة قد ضاق بها صدر كل منا حتى التقينا.

~~~~~~~~~~~~~~~~~~~

في طريقي للعودة لم أستطع أن أبعد عن وجهي تلك الابتسامة الحمقاء، لا شك بأن الركاب قد ظنوا أن هناك خطب ما في عقلي، أو أنني أرى اشباحا خفية تثير ضحكي، لكني كنت سعيدة ولا أعرف لماذا، فقط سعيدة، وكأن من ذهبت إلى شارع العرب امرأة أخرى غير التي عادت منه الأن .

امتلأت ذاكرة هاتفي في الأيام التي تلت هذا اللقاء ما بين الرسائل الصباحية والمكالمات الهاتفية، وكيف كان يوم كل منا، وامتلأ معها ذلك الفراغ والشعور بالوحدة الذي بلا شك جمعنا في تلك الليلة تحت سماء الغربة.

مساء يوم الجمعة تلقيت رسالة من شريف يسألني عن خططي لنهاية الأسبوع، سرحت قليلا فقد كان يوم الزيارة العائلية، أما الأن فلا شيء لدي.
~~~~~~~~~~~~~~~~~~~

- ليس عندي خطط بعد.
أجبته.

- إذن ما رأيك في نزهة إلى سنتوسا؟
سألني شريف بحماس.

- سنتوسا!

- مقيمة في سنغافورة ولم تزوري الجزيرة! لقد فاتك الكثير.

- شريف لا تسخر مني، لقد كانت زيارتي لشارع العرب هي أول نزهة لي هنا.

- هذا من حسن حظي.
قالها بصوت دافئ ولم أدرِ بماذا أجيبه فسكتت، وتابع هو حديثه بعد حمحمة:
-إذن هل يعني ذلك الصمت أنك موافقة.

- كيف سنذهب إلى هناك؟

- سأمر عليكِ في العاشرة صباحا، أحضري معك مظلة وزجاجة مياه.

- سأنتظرك

لا أحد يملك تفسير تلك الحالة التي نصاب بها فور الإعجاب بشخص ما، وكيف يمكن لشخص دون غيره أن يحمل إكسير الحياة الخاص بنا.. كيف نصغر عمرا وتلمع أعيننا وتشرق وجوهنا رغم الأرق الذي قد يصيبنا، ربما أرق الأحلام ليس منهكا كأرق الحرمان، أو ربما لأن الليل يصبح ممتعا أكثر حين نحب، فتتسع دائرة القمر فوق نوافذنا، وتتلألأ النجوم عن قرب، فنصبح في بعد أخر من الزمن، تتحرك أجسادنا على الأرض وتحلق أرواحنا في السماء!

في العاشرة صباحا كنت كطفلة في صباح العيد، ارتديت سترة بيضاء وبنطلون چينز، ورفعت شعري للأعلى حتى لا يفسده الحر، وضعت القليل من مساحيق التجميل، وتعطرت بالياسمين، وانتظرته بلهفة غامضة حاولت أن لا أظهرها فور رؤيته، كنت أنتظره أمام البناية وهو يقترب بابتسامة مشرقة نبض قلبي لها مسرعا.

مضينا سويا إلى محطة الحافلات المتجهة إلى الجزيرة، وأشعة الشمس فوق رؤوسنا تخترق السحابات المتناثرة فتقلل من حدة حرارتها، وصلت الحافلة في موعدها وكان لحسن حظنا مازال هناك الكثير من المقاعد الفارغة.

- أود أن أشكرك يا نادين على قبولك دعوتي اليوم.

قال شريف فور جلوسنا.

- لا داعي للشكر لقد وقعت عقد صداقتنا وسط أطباق مطعمك الشهية.

ضحك شريف وقال:

- إذن لقد نجحت خطتي! أما بخصوص المطعم فهو ليس مطعمي أنا فقط أديره.

- هل تتمنى أن تصبح المالك يوما؟

سألته بعد أن شعرت بالقليل من اليأس في صوته.

- لا أدري إن كان ذلك ممكنا، لا أنكر بأن لدي طموحا كبيرا منذ صغري، لكن ربما ذلك الحماس الزائد لم يسمح لي بأن استقر في مكان واحد أكثر من عامين، كنت دائما أنظر للأفضل.

سرحت في كلماته وتذكرت المفارقة بينه وبين هشام!

- فيما سرحتِ؟

- لا شيء، هل يمكنني السؤال عن زواجك السابق؟

- كنا زملاء في الجامعة، وكانت مشاعرنا لم تنضج بعد، تزوجنا بعد تخرجنا ثم اصطدمنا بكثير من العقبات، كنا عالمين مختلفين، حاولنا التعايش ولكن هناك وقت - وأظنه بعد الخامسة والثلاثين - تبدأين في إعادة النظر لكل شيء في حياتك، فما كنتِ تتعايشين معه في العشرينات لا يمكنك تحمله في الثلاثينات.

شعرت وكأنه يتحدث عن حياتي! فسألته:

- ترى لماذا نتغير بعد الثلاثين؟

- أعتقد لأننا نكبر والخوف من تلك الحقيقة يجعلنا في حالة دفاع، دفاع عن مشاعرنا، عن عملنا، عن أفكارنا. فنبدأ في رفض أي شيء يستنزف المزيد من ذلك العمر في أشياء لا تشبهنا.

- نعم، أنت محق. لكن لماذا قررت السفر؟

- كنت أبحث عن النجاح، كنت أخطط لعمل مشروع خاص بي، فالدولة هنا تدعم الاستثمار، لكن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن! فقد خسر المشروع خسارة فادحة لأسباب كثيرة، فما كان أمامي سوي العودة إلى مصر، أو أن ابدأ هنا من الصفر وقد اخترت الخيار الثاني.

- هل ندمت على قرارك؟

- لا أؤمن بالندم، فأنا مؤمن أن كل شيء يحدث لسبب ما، ربما لا نملك الحكمة الكافية لمعرفته وقتها، لكن الحياة تفصح عنه مع الأيام.

شريف رجل عملي، عقله يعمل كحاسوب لديه برمجته الخاصة. كنت أعلم أنه ذلك الرجل الذي يجعل أنثاه متعطشة دوما؛ لأنه لا يملك مفاتيح الكلمات رغم وضوح أفكاره. لا شك بأن الأنثى - وخاصة العربية - لديها شراهة للكلمات، ما بين الغزل في عينيها والحديث عن ألم الاشتياق. لكني في تلك الفترة العمرية ما كنت أحتاج لرجل غير شريف ليشعرني بالأمان. رجل يعرف كيف يخلق الواقع من رحم الأحلام! كانت الحافلة قد وصلت إلى طريق سكاي ووك عندما طلب مني شريف التحرك.

~~~~~~~~~~

- لقد وصلنا، هل أنتِ مستعدة؟

ابتسمت وسألته:

- أين نحن؟

كنت أرى طريقا علويا طويلا أشبه بكوبرى ممتد أمامي، ومدخل بتذاكر إلكترونية كان يحملها معه.

- سوف نمشي قليلا فوق الطبيعة الساحرة حتي نصل إلى الشاطئ.

- قليلا؟

- أجل.. فقط ١٨١ مترا.

تسمرت في مكاني فقد بدأت الشمس تشتد حرارتها!

فتح شريف مظلته وطلب مني فتح مظلتي ثم مد يديه ودعاني بضحكته:

- هيا يا كسولة سوف يغير الطريق رأيك.
~~~~~~~~~~

أمسكت بيديه وبدأنا جولتنا، كانت الأشجار الكثيفة تغطي الجزيرة أسفلنا كبحر أخضر يبعث فينا السكينة، تتشابك أوراقها كتشابك أيدينا، وضحكات قلوبنا تعلو فوق تغريد الطيور فتغار منا وترفرف بأجنحتها فوق رؤوسنا.

مشينا في قلب الطبيعة حتى توقف شريف بعد عشرة دقائق.

- هل تعبت يا كسول؟

سألته بدعابة.

- نعم، لذلك سأركض!

ثم بدأ يركض وهو يلوح لي أن الحقه

- يا الهي! أنت مجنون!

لم يكن أمامي سوي أن أركض أيضا، لكن أثناء ركضي غمرني شعور غريب حين نظرت إلى الأشجار ودقات قلبي تسرع أكثر فأكثر، شعرت للحظة بأني في ذلك الكابوس القديم...
الغابة.. الركض.. حرارة الشمس.. كل شيء وكأنه يتكرر وأعيشه بنفس التفاصيل.
شعرت بالخوف ينتزع أنفاسي فتوقفت!

توقف شريف بعد أن رآني، ثم ركض في اتجاهي في قلق.

- ماذا حدث؟ هل أنتِ بخير؟

- نعم، فقط تعبت.

- أنا أسف يا نادين، دعينا نرتاح قليلا هنا، لقد كانت فكرة الركض في ذلك الطقس فكرة غبية.

- لا بأس، أنا بخير، كما أنني أري المدينة الآن وشاطئ الجزيرة.

قلتها وأنا أنظر إلى القلق في عينيه مبتسمة.

- نعم لقد وصلنا تقريبا، فقط خمس دقائق.

~~~~~~~~~~~~~~~

رمال ناعمة تتناثر حول أقدامنا في كل خطوة نحو الشاطئ حيث تستقر المياه شديدة الزرقة والصفاء، وأشجار النخيل هنا وهناك تظلل مقاعد الاسترخاء بأوراقها العريضة العالية، كنت أعيش مع شريف في تلك اللحظات أكثر مما تمنيت، كنت أشعر بسعادته هو الأخر من بريق عينيه، كنا كطفلين ننطق بما تمليه علينا قلوبنا بلا
~~~~~~~~~~~~~~~

تفكير أو أقنعة، وكنا نعلم دون أن نعترف حتى لأنفسنا أننا في ذلك اليوم قد وقعنا في الحب!

~~~~~~~~~~~~~~

تُرى كيف ينقسم الحرمان والاحتياج النفسي إلى صور متعددة لا يملؤ بعضها البعض، قد تتشابه أوجاع الفراق أو تختلف في حدتها، لكن لكل ألم موضعه الخاص. فبالرغم من أن شريف قد أحاط أنوثتي برجولته، وملأ فراغ غربتي بصوته الذي لا ينقطع وأعاد إلي الكثير من العمر والمشاعر التي ظننت بأني فقدتها للأبد، لكن ذلك لم يوقف حنيني لأولادي في يوم حتي وإن شغلني عنهم، كما لم يستطع عناقهم لي كأم أن يعوض ما كنت أفتقده كزوجة.
فهل هذا جشع عاطفي؟ أم أن مشاعرنا تأخذ عدة أشكال وفقا لأدوارنا في الحياة؟

أصبح شريف موطني الأن، فكل ما تبقى لي من عائلتي صور متحركة عبر الإنترنت يشوشها سوء الاتصال. وكل ما تبقي لي من الوطن لا يتعدى الذكريات!

علي مدار أربعة شهور، لم يظهر شريف أي مشاعر نحوي، كنت أشعر بخوفه من فقداني فإن دخل دائرة الحب فلن يكون هناك مخرج سهل ان لم أكن فيها أيضا، لكني كنت أسمع ضجيج أفكاره في كل مرة يسود بيننا الصمت في مكالمة هاتفية، وكنت أرى شرود عينيه في كل لقاء. حتى تلك الليلة التي تبدل فيها كل شيء حين دعاني إلى العشاء في منزله، في البداية ترددت كثيرا لكن بداخلي كنت أتمنى رؤيته بعيدا عن أعين العالم.

وقفت أمام الخزانة لا أدري ماذا سأرتدي، أي رداء يمكنه أن يخفي كل تلك العيوب في جسدي؟ وأي زينة أضع علي وجهي كي أبدو أصغر سنا! كنت في حيرة ويأس فقد مضى زمن لم أحاول أن أثير اعجاب رجل، كنت قد فقدت اهتمامي بنفسي كأنثى أو أني تناسيت أنوثتي. في النهاية اخترت فستان أسود كلاسيكي تحت الركبة بأكمام طويلة، لا شك أن الأسود اختيار جيد لإنهاء تلك الحيرة.

كانت الساعة التاسعة مساءً حين طرقت باب شقته، وأظنه قد سمع ضربات قلبي مع صوت الجرس!
- من أنتِ سيدتي الجميلة؟
قالها بعد فتح الباب بابتسامة ساحرة.

- أظن أنه قد تم دعوتي إلى هنا، فهل هذا منزل السيد شريف؟

- إنه المحظوظ شريف! تفضلي.
~~~~~~~~~~~~~~

كانت شقته تبدو صغيرة لكنها بالتأكيد أكبر من مكان سكني، منظمة للغاية ورائحة الطعام الشهي تفوح من المطبخ. كنت أتخيل أن منزل رجل أعزب سيكون غير مرتب بالمرة، كما أنني لم أتخيل أن يمكن لرجل لديه الكثير من المشاغل أن يطبخ بمثل تلك المهارة خاصة بعد تذوق طبق اللحم المشوي اللذيذ الذي أعده لي مزينا بقطع البطاطا والخضروات.

- لم أكن أعرف أنك متعدد المواهب؟

قلت له وأنا أساعده في رفع الأطباق عن الطاولة.

- في الحقيقة أنا لم أدخل المطبخ منذ عام لأعد طعاما لنفسي، لكن دعوتك تلك شجعتني كثيرا.

- لابد من أني شخص مميز لتعد لي طعاما شهيا هكذا.

- بلا شك! كما أنك أول امرأة تزورني في منزلي بالمناسبة.

لم أكن لأثق في كلماته، لكن كنت أعرف أنه يحاول طمأنتني.

بعد العشاء جلسنا سويا في غرفة صغيرة وكأنها شرفة مغلقة، كانت فقط تحتوي على أريكة، نافذة كبيرة تطل على المدينة، واصائص من النباتات والزهور معلقة في الأركان، ومصباح عمودي في الجوار

كنت اتأمل المدينة حين شعرت بيده تلمس يدي للمرة الأولي، نظرت إليه وابتسمت، شعرت بدفء في عينيه وبقينا هكذا دقائق تدور الأحاديث فقط في أعيننا.

- لابد أن اعترف أنكِ في تلك الشهور القصيرة قد غيرت الكثير في حياتي.

- هل تغيرت للأفضل أم للأسوأ؟

- أنا لا أجيد التعبير عن مشاعري، دائما ما أفقد الثقة في الكلمات، أخشى أن تخذلني، لكن باختصار كل ما يمكن قوله أنكِ خلقتِ السعادة في قلبي كم لم تفعل امرأة في عمري.. لقد وقعت في حبك منذ أول مرة رأيتك فيها، كنت أعلم أنك أنتِ من كنت في انتظارها طوال الوقت.

شعرت بقلبي ينتفض فرحا، وضعت يدي الأخرى أتحسس وجهه، كنت اقترب منه وأنا اعترف له:

- إن أرواحنا لتطوف شاردة تبحث عن موطنها، ولقد وجدت روحي موطنها حين أحببتك.

اقترب أكثر مني وقبلني، شعرت بأنفاسه تخترق صدري، تُسكرني.. كنت أغرق فيه أكثر فأكثر حتى ما عادت قدماي تلمس الأرض.

- هل تقبلين الزواج مني؟

- تعيسة انا ان رفضت.

كنت أظن أن بعض الخيارات الخاطئة لابد وأن ندفع ثمنها لباقي العمر، لكن الحياة قد تدرك أحيانا مدى شقائنا فترأف بنا وتخفف من قسوة الحكم، تمنحنا فرصة أخري للعيش بعيدا عن سجون الماضي وانتهاكات العقل.

~~~~~~~~~~~~~~~~~~~

الفصل الرابع

ما أجمل الصباحات التي نستيقظ فيها لتشرق الشمس من وجه من نحب، قد مضى علي زواجنا أسبوعان.. أسبوعان بلا عمل بلا مسؤوليات، فقط أنا وشريف في منزله الدافئ نتغازل نلهو نمارس الحب، كنت أشعر بحبه يكبر بداخلي في كل يوم وهو يعتني بي كطفلته المدللة، وددت ألا ينتهي ذلك العسل من رحيق حياتنا للأبد، لكن كان لابد من العودة إلى العمل بعد انتهاء إجازة الزواج.

قبلته في جبينه كثيرا حتي استيقظ مبتسما:

- صباح الخير يا حبيبتي.

- صباح الحب، هل أنت متحمس للرجوع إلى العمل، لابد من أنك سئمت الجلوس في المنزل.

قلتها وأنا أرتب شعره بيدي لأعيد خصلاته إلى مكانها.

- أنتِ عالمي الأن، كيف لي أن أسأم من بذور الفرح التي تنثرينها في كل يوم من حياتي!

- ها قد صرت شاعرا بعد أن كان وجهك يتورد من كلمة أحبك.

قلتها وأنا اضحك.

- لا شك أنك حطمتي عزلتي واقتحمتي قلبي، وحررتي منه الكلمات التي ما كنت ادري بوجودها.

في طريقي إلى العمل تلقيت رسالة من شيرين:
~~~~~~~~~~~~~~~~~~~

- كيف حالك يا عروسة؟ هل ذلك الرجل يجيد الحب؟

- اسمه شريف، إنه رائع يا شيرين يحاول ارضائي طوال الوقت.

- إذن كان الأمر يستحق السفر أربعة عشر ساعة لتلتقي به.
قالتها شيرين ساخرة.

ضحكت وأجبتها:
- لا أمل في نضجك أبدا.

- متى ستكتمل الأسرة بحلا وأحمد؟
ارتجف قلبي قليلا كنت أفكر في الأمر طوال الفترة الماضية حتى في أكثر لحظات قربي من شريف.
- قريبا.

كنت أعلم مدى حب شيرين للأولاد بالرغم من أنها لم ترهم منذ سنوات، فقد كانت شيرين بمثابة أمهم الثانية، خاصة بعد أن حرمتها الحياة من حلم الأمومة، والتي كانت تتهرب دائما من الحديث عنه في كل مرة أحاول أن أعرف السبب، ربما كان بإمكاني مساعدتها، لكن مؤخرا احترمت صمتها، فهي دائما ما كانت تخبرني: "الحديث عن الفجوات بداخلنا يزيدها اتساعا"

أنهيت الحوار وأنا أفكر كيف سوف أعرض الأمر على شريف، هو يعلم منذ البداية أن الأولاد سوف يقيمون معي، لكن منذ عرضه الزواج مني وحتى الآن لم نتحدث في الأمر.

في المساء - وبعد يوم طويل - استلقينا على الأريكة في تلك الشرفة، رأسي على صدره وذراعي يحتضنان خصره، وهو يضمني إليه في حنان يمحو آثار تعب النهار عني.
- كم أتمنى أن تدوم سعادتنا إلى الأبد.

- ولِمَ لا؟ الأمر بأيدينا.

- لكني أخشى أن يموت الحب بعد الزواج؟
سألته وأنا أخشي فقدان ما أشعر به الأن بعد مرور عام أو أكثر.

- هل ما عدتِ تحبينني بتلك السرعة؟
سأل شريف وهو يضحك.

- بالطبع أحبك، لذلك أسألك خشية فقدان حبك؟

- أظن أن الإجابة في سؤالك!

- ماذا تعني؟

- أعني أنك مؤمنة بأن الحب ينتهي بعد الزواج، وهذا الإيمان سيفقدك طاقة المحاولة في الحفاظ على ذلك الحب إن واجه عقبات، سيفقدك الأمل في الشفاء إن أصيب بوعكة جفاء، الحب شعور حي فكيف يعيش إن حكمتِ عليه بالموت؟

- لست أنا من يحكم بالحياة أو بالموت فأنا لست سوى كائن حي أيضا.

- اريحي قلبك يا حبيبتي، الحب الذي يموت في النهاية لم يكن حبا في البداية، وأنا أحبك كثيرا قبل البدايات وبعد النهايات.

كنت شاردة كثيرا في أمر الأولاد، كنت أشعر بالذنب أن أكون سعيدة هكذا وهم بعيدون عني. يا الهي! إن الإنسان حقا لعدو نفسه، يظل يلهث طوال حياته ولا يعرف متى يتوقف ليسترح.

- فيما تفكرين؟ هناك أمر ما يدور في عقلك.
سألني شريف وهو يبعد بصدره ليرى وجهي.

- أفكر في الأولاد ، افتقدهم كثيرا وأفكر متى أراهم؟

سكت شريف قليلا وقد شعرت وكأنه قد صدم بما قلت.
-لا أعرف، فمن الصعب الآن أن نأخذ إجازة أخرى.

رفعت رأسي عن صدره ثم سألته:
- أي إجازة يا شريف؟ أنا أتحدث عن وجودهم هنا معنا.

- لماذا تقول النساء شيئا وهي تقصد شيئا آخر، وكيف لرجل أن يستشف من بين الكلمات المقصد الحقيقي؟

- أنا لم أكن أعرف كيف أقول لك ذلك، كنت أشعر بأن التوقيت غير مناسب.

- لا بأس يا نادين، هذا بيتك ومرحبا بهم في أي وقت.

لم ينجح شريف في اخفاء ضيقه رغم محاولته، حتي بعد ذلك حين حاول أن يظهر أن ذلك الحديث لم يؤثر عليه، كنت أرى غيرة في عينيه كطفل صغير سيشاركه أخ جديد في أمه التي لم تلد بعد.

~~~~~~~~~~~~

لماذا الحرب؟
لقد خلقنا دون أسلحة، بقلوب هشة تتحسس الطرق المظلمة في حذر، ثم خلقت لنا الحياة أعداءً من الخوف، من الألم، من الفشل. فما كان لنا إلا أن نحمل أسلحة لا نقوى على حملها؛ لنواجه أخطاءً لم نقترفها، لنطالب بحقوق كانت في الأصل لنا!
فلماذا الحرب؟
كي نحب، وكي نشفي ممن نحب؟!.
كي نتخطى الماضي دون ندبات؟!.
كي نعيش الحاضر في سلام!

وها أنا الآن في حرب على الحدود بين قلب هنا و قلب هناك!
فبعد رد فعل شريف الذي أحزنني كثيرا كان علي أن أواجه هشام بأني أريد الأولاد، لم يكن يدري شيئا عن زواجي، فما كان ليصدق أن كل ما حدث أقدار لا دخل لي فيها وأن زواجي بتلك السرعة ما كان في الحسبان.

- لماذا تريدين الأولاد الآن؟ لقد تخليتِ عنهم وقد اعتادوا غيابك.
كان رد هشام صادم أكثر من شريف
- لقد اتفقنا قبل سفري أنهم سيقيمون معي بعد أن تستقر أموري.

- وهل استقرت أمورك؟ هل وجدتي الحياة كما حلمتِ بها؟
تعصبت كثيرا من هشام فقد كان حديثه ينم عن غضب أخفاه في صدره طوال الفترة الماضية.
حاولت أن أهدأ، فقد كنت أخشي أن أتسرع في ردة فعل يزيد من غضبه وأفقدهم للأبد.
- أنت مشغول يا هشام طوال الوقت، وهناك مهام صعبة لا تقوى عليها سوى الأم.

- لقد هربتِ من تلك المهام، لقد عاشوا خمسة أشهر من دونك وقد كانوا سعداء.
~~~~~~~~~~~~

كنت أشعر أني وصلت إلى نقطة الغليان، كيف تمكن من تغير الحقائق هكذا، وددت أن أصرخ لأخبره أني ما هربت إلا منه، وأن تلك المهام كانت دوما مسؤوليتي، وأنه على مدار سنوات ما كان يشاركني فيها شيئا، فهل رحيلي أيقظ فيه مشاعر الأبوة فجأة أم أنه يعاقبني بهم علي قرار الانفصال.

أخذت نفسا عميقا قبل أن أجيبه:

- لدي حل يا هشام، دع الأولاد يأتون لزيارتي شهر، ثم بعدها يكون القرار لهم إما الاستقرار هنا او العودة اليك، فهل هذا حل مرضي لك؟

سكت هشام قليلا ثم قال بصوت اكثر هدوء:

- لا بأس.. شهر واحد فقط، فأنا أعرف اختيارهم من الأن.

- شهر واحد فقط.

قلتها كي أطمئنه، كنت واثقة - على عكسه - أن قرارهم سيكون البقاء معي، بالرغم من أنني لم أشأ أن أضعهم أبدا في ذلك الاختبار.

كنت أعد الأيام والساعات والدقائق التي تفصلني عن زيارة الأولاد، اشتقت لضمهم إلى صدري، إلى رائحتهم الذكية، إلى كلماتهم المتلعثمة، إلى ضحكاتهم وهم يركضون حولي ويختبئون خلف ظهري، اشتقت لأن أكون الحكم في شجارهم، أن أجيب أسئلتهم التي لا تعرف المنطق. اشتقت أن أسعد قلوبهم النقية بالحلوى والألعاب وقصص ما قبل النوم.

لم أخبر شريف بمكالمة هشام، لم اشأ أن أقحمه في مزيد من الفوضى، كانت الزيارة وحدها كافية لتبعث القلق في نفسه، كنت أشعر بما يدور في رأسه من أسئلة: أين سينام الأولاد؟ كيف يتعامل معهم؟ هل سيحبونه أم لا؟ وما كنت لألومه؛ لأن كل ما يدور في عقله يدور في عقلي أيضا، لكننا لم نتحدث في الأمر، مضت الأيام هادئة كما كانت يحيطني بعطفه وأحيطه باهتمامي.

~~~~~~~~~~~~~~~~~

في المطار كنت أنتظر بلهفة وصول طائرة الأولاد، وأحمل معي بيانات المضيفة التي تصطحبهم، كنت أفكر كيف قضوا وقتهم طوال تلك الرحلة الطويلة، أو طوال الأشهر الماضية؟

كان شريف يقف بجواري في صف الانتظار ويده على كتفي، همس لي وسط الزحام:

- لم أراكِ سعيدة مثل اليوم.
~~~~~~~~~~~~~~~~~

وضعت يدي حول خصره وأجبته:
- بل أنا سعيدة دائما معك كما لم أكن من قبل، لكن قدوم الأولاد قد أكمل صورة في خيالي لطالما حلمت بها.

لمحت الأولاد من بعيد مع المضيفة، شعرت بقلبي يركض نحوهم قبل جسدي، كانت وجوههم متجهمة على عكس وجهي والذي لم تفارقه الابتسامة، أخذتهم بين ذراعي وقبلت رؤوسهم كثيرا.
- يا الهي! لا أصدق أنكم هنا..
ثم دون أن أشعر بكيت وهم في حضني
لم ينطق أحد منهم بكلمة، حتي أقترب شريف حين وجدني أبكي ورحب بهم.
- حمدا لله على السلامة، سعيد برؤيتكم، ثم مد يده ليصافحهم.

نظر أحمد إلى حلا ثم اليّ وكانت عيناه يملأها الكثير من الأسئلة، ما بين اللوم والغضب، كانت المرة الأولي التي أراه هكذا، أما حلا فكانت تنظر في لامبالاة، وكأنها لم تفتقدني أو أنها غاضبة مني ايضا.
مد أحمد يده ليصافح شريف، وقالت حلا أول كلمة منذ وصولهم:
- من هذا؟
بلعت ريقي بصعوبة قبل أن أجيب
- هذا شريف زوجي!
ثم نظرت إلى شريف وعرفته على الأولاد
تحول الموقف من ترحيب بعد طول غياب إلى محاكمة بالعيون، كل يلقي سهام الاتهام نحوي.
أخرج شريف من جيبه حلوى كان قد اشتراها من المطار للأولاد.
شكره أحمد ورفضتها حلا.

- هيا يا أولاد، دعونا نذهب إلى البيت، لابد من أنكم متعبين.
قلتها في محاولة لإنهاء تلك المواجهة سريعا.
وقعت للمضيفة على الأوراق والتي كنت نسيت وجودها تماما، ثم مضينا إلى المنزل وكأن على رؤوسنا الطير!

في المنزل، جهزت غرفتهم وكان شريف ودودا، للغاية فجهز لنا عشاءً شهيا أثناء ذلك، وهو يحاول طوال الوقت أن يشد خيوط الحديث مع الأولاد في أي شيء قد يثير اهتمامهم، لكنه كان يفشل في كل مرة وينتهي الحديث بكلمة أو اثنتين.

- يمكنك النوم في غرفتهم اليوم، أعلم أنك تفتقدينهم كثيرا.

قالها شريف بعد العشاء، وقد زاح عن قلبي حملا ثقيلا، فما كنت أدري كيف أطلب منه ذلك.

- هل أنت متأكد؟ يمكن أن ننام جميعا في غرفة واحدة.

- لا بأس يا حبيبتي، هم لديهم الكثير من الكلام المعلق في صدورهم، ووجودي يشعرهم بالخجل من التحدث وهذا أمر طبيعي في البداية.

في غرفة الأولاد، والتي كانت غرفة إضافية في منزل شريف بها سرير واحد عريض ودولاب صغير، جلسنا جميعا على السرير وأنا ممسكة بأيديهم:

- ماذا بكم؟ أشعر أنكم لستم سعداء برؤيتي؟
- لماذا لم تخبرينا بأنكِ تزوجت؟

سألني أحمد.

- لقد حدث كل شيء سريعا لم يكن هناك وقت لأخبركم، هل أمر زواجي يزعجك؟

- لا أدري يا أمي، لم أعد أفهم شيئا. لماذا رحلتِ عنا؟ لماذا انفصلت عن أبي؟ ومن هذا الرجل؟ وأين سنعيش نحن؟ كل شيء صار مبهما لدينا.

- هل معني أنك تزوجتيه يا أمي أنه صار أبي بدل هشام؟

سألتني حلا ببراءة مقاطعة حديث أحمد.

وضعت يدي على شعرها وأنا أخبرها بأن شريفا رجل طيب كثيرا، وأنه سيعاملهم مثل هشام وأفضل.

نظرت إلى عيني أحمد الحزينة، وقد آلمني كثيرا أن أكون أنا السبب في حزنه. كنت أعلم أن الأمر يحتاج وقتا لتقبلهم الوضع الجديد، لكن تلك البداية قد شلت تفكيري وأفسدت سعادتي، ولم أكن أملك الإجابة على أسئلته الكثيرة سوى أن كل شيء سيكون أفضل في الغد.

~~~~~~~~~~~~~~~~~

عندما توفي أبي وأنا في عمر أحمد كان لدي الكثير من الأسئلة كنت أسألها لأي شخص في طريقي، كيف مات أبي؟ وإلى أين يذهب الأموات؟ وهل سيعود؟ هل سأراه؟ وكانت كل الإجابات ساذجة ومختصرة فقط لإسكاتي، حتى تلك الليلة، والتي قد ضاق بها صدري من زحمة الأسئلة، كتبت ورقة ووضعتها على نافذتي، كنت أنتظر أن يحملها الطير إلى كل الناس، لعل أحدا يمتلك الإجابة، كتبت فيها كلمة واحدة.. لماذا؟
~~~~~~~~~~~~~~~~~

لا تموت الأسئلة فينا حين نكبر كل ما في الأمر أننا نتقبل ان الحياة لا تمتلك أجوبة!

في نهاية الأسبوع بينما كنت نائمة في حضن شريف سمعت صراخ حلا، فركضت إلى غرفة الأولاد؛ وجدتها تضع كفيها على وجهها وتبكي وأحمد مستيقظ بجوارها يحاول تهدئتها.

نزعت يدها من على وجهها وعانقتها وانا اسألها:
- ماذا حدث؟
كانت لا تزال تبكي فرد أحمد عنها:
- حلم سيء يا أمي.

أمسكت برأسها برفق وأنا أمسح دموعها:
- أخبريني يا صغيرتي ما الذي أصابك بالذعر هكذا؟

نظرت إليَّ حلا بأعين خائفة ثم قالت بصوت منخفض:
- إنه هو يا أمي، ذلك الرجل كان له وجه مخيف يحاول أن يلتهمني بأنياب حادة.

- أي رجل.

نظرت حلا إلى أحمد فقال هو:
- شريف.

لم أستطع التحكم في غضبي فصرخت بهم:
- ماذا فعل ذلك الرجل كي يثير خوفكم هكذا، منذ مجيئكم وهو يحاول أن يكون ودودا معكم وأنتم تصدونه طوال الوقت، لابد أن هشام من زرع تلك الأفكار في رأسكم.

عادت حلا تبكي من جديد.. أخذت نفسا عميقا وقد شعرت بحماقتي.

- يا أمي نحن لا نخاف منه، ولكننا نشعر بأنه رجل غريب، وأنتِ تدفعين بالأمور بسرعة كي نعامله كأبي.
قال أحمد.

نظرت إليه ثم أجبته وقد هدأ صوتي حتى صار أشبه برجاء:

- أنا لا أريد منكم أن تعاملونه كأبيكم، ولكن أعطوه فرصة، فكيف تقبلون وجوده وأنتم ترونه وحشا بأنياب حادة.

- نحن لا سيطرة لنا على أحلامنا.. أليس ذلك كلامك يا أمي؟

قال أحمد بدهاء لم اتوقعه فنفذت مني الكلمات سوى كلمة واحدة:

- أحبكم.

قلتها وعانقتهم وشعرت أن أحمد محق، فهم ليسوا سوى أطفال لا يمكنهم التحكم في مشاعرهم أو إجبارهم على حب شخص ما أو كرهه.

نمت في سريرهم تلك الليلة وأنا رأسي مشغول بشريف، فقد كنت اتأرجح بين الكفتين، أحاول أن أصنع التوازن لأحظى بكل شيء أحبه دون ان افقد شيئا، لكن هناك حاجزا بين شريف والأولاد لم أستطع كسره رغم كل المحاولات، كنت أحلق كحمامة سلام بين الطرفين، أحاول أن أنثر بذور الحب في قلوبهم المؤصدة.

في الصباح جهزت الفطور وذهبت لأوقظ شريف فكان مستيقظا في السرير بالفعل، قبلته وسألته إن كان بإمكاننا إن نأخذ الأولاد إلى الملاهي المائية.

- يا نادين ظروفنا المادية لا تسمح لنا بالتنزه كل يوم، كما أن تذاكر سفر الأولاد لم تكن رخيصة.

صدمت من رد شريف ولكني أجبته بهدوء:

- لكنهما يا حبيبي في إجازة لشهر واحد، فهل سيمكثونه في البيت؟

- يمكننا أخذهم إلى حديقة الأزهار.

- ما المتعة في حديقة الازهار للأطفال، كما أن الطقس شديد الحرارة.

تركت الغرفة حين سألني وانا اتجه نحو الباب:

- إلى أين ستذهبون؟

نظرت إليه وأنا غاضبة:

- تقصد إلى أين سنذهب؟ ألن تأتي معنا؟

- لا داعي من وجودي فالأولاد سيسعدون أكثر إن لم أكن هناك.

حاولت إنهاء الحوار دون الدخول في شجار.

- سوف نذهب إلى مركز التسوق لشراء الحلوى.

مضيت بعد أن أخبرته أن الفطور جاهز، لكنه لم يأت؛ وكأنه يتهرب من المواجهة مع الأولاد، وكأنه قرر أن يوقف محاولات صنع الود معهم حفاظا على كرامته.

كنت في حيرة شديدة من أمري، كيف يمكن أن أكسر الحاجز بين الطرفين وقد أصبح كلاهما لا يحاول حتى أن يساعدني.

اتجهت مع حلا وأحمد إلى مركز التسوق، وكان يؤلمني أنني لا أستطيع شراء كل ما تقع أعينهم عليه وأرى رغبتهم فيه حتى وإن لم يكشفوا عنها بالكلمات، ربما اقتراح شريف كان أفضل، لم يكن ليرغبوا في زهور على أي حال.

جلسنا في أحد المطاعم نتناول الآيس كريم فسألتهم كيف مضت الفترة الماضية:
-أبي كان جيدا معنا، لقد أصبح يشاركنا الألعاب ويساعدنا في دروسنا.
قال أحمد ثم أضافت حلا:
- أصبح يقرأ لنا أيضا قصة ما قبل النوم، لكنه ينام دائما قبل أن ينهيها.

شعرت بالغيرة الشديدة والغضب، فقد كنت أعلم أن كل ذلك فقط لإبعادهم عني، خاصة بعد ما علم بأمر زواجي، يا لك من رجل لئيم يا هشام! الآن تشارك الأولاد في كل شيء بعد أن كنت لا تعرف عنهم شيئا.
قلت في نفسي وأنا أحاول ألا يبدو على وجهي الشعور بالضيق..

نمت في المساء بجوار شريف بعد أن اعتذر لي عن عدم مجيئه معنا. كنت أشعر بقلة حيلته وصدق اعتذاره. تعاطفت معه وقلت في نفسي:
-ها هو انت يا شريف.. طفلي الثالث!

~~~~~~~~~~~~~~~

الثالثة صباحا.

استيقظت فجأة.. شعرت بجفاف شديد في حلقي. في طريقي إلى المطبخ اقتربت من غرفة الأولاد لأطمئن عليهم حين سمعت صوت أحمد يتحدث في الهاتف:
- نعم يا أبي، لقد تزوجت.

- لا .. نحن نراه ساعات قليلة في اليوم وهو شخص جيد، لكني لا أحبه.

- أبي! أنا لست سعيدا هنا أود أن أعود إلى مصر.

- لا أدري! أنت تعلم حلا. هي في عالمها الخاص مع الدمى والألعاب ربما لا تدرك بعد أين نحن.
~~~~~~~~~~~~~~~

- هل ستتحدث مع أمي في الأمر، فلسوف يؤلمها كثيرا أن تسمع ذلك مني.

بقيت خلف باب الغرفة أقاوم البكاء حتي لا يسمعني أحد، فما كان في قلبي من ألم في تلك اللحظة كان يكفي لقتلي لكنه لم يفعل، لم يمض سوى أسبوع واحد وقد اتخذ أحمد قراره، هل كنت حمقاء حين توقعت أن يختارني الأولاد، أم تراني أذنبت حين تمنيت زواجا حقيقيا من رجل أحبه ويحبني؟ المزيد من الأسئلة التي لا تملك لها الحياة أجوبة، ولعل الطير لم يعد بعد علي نافذتي لأرسل معه ما في جعبتي من اسئلة لا تنتهي ولا يهدأ صداها مهما ابتعدت.

في الأسبوع الأخير من زيارة الأولاد كنت أفرط في تدليلهم، كنت أمضى طوال الوقت معهم حتى إني أهملت شريف دون قصد والتصقت بهم، وكأني أرجوهم تخفيف الحكم عني، فإن رحلوا تلك المرة سأكون قد خسرتهم للأبد، فإن كانت خمسة أشهر زرعت بهم كل ذلك الجفاء فأي أمل لي بعد ذلك؟

كانت المسافة بيني وبين شريف تتباعد رغم التصاق أجسادنا في الفراش، كنت أشعر بحزنه لكني تمحورت حول نفسي كأصم لا يسمع سوى صوته الداخلي.

في ليلة ما قبل السفر كان لقائي الأخير بالأولاد، كانت قوتي تتلاشى وضعفي يغلب عقلي، فدخلت غرفتهم وجلست بجوارهم اتأمل ملامحهم، ثم قلت لهم بصوت مخنوق:

- أما زلتم تودون الرحيل؟ هل اسأت إليكم في شيء؟

نظر إلى أحمد والدموع تترقرق في عينيه.

- لا يا أمي لم تسيئي إلينا قط، لكن أبي وحده الآن، وهو بحاجة إلينا أكثر منك، أنت معك شريف وهو يحبك.

- لكني أنا أحبكم أكثر من أي شيء في العالم ولن أسعد وأنتم بعيدون عني.

- لقد رأيت حيرتك يا أمي.. لقد شعرت بالشفقة عليك، ربما التوقيت الآن ليس مناسبا، فلم يمضي على زواجكم الكثير، ووجودنا هنا يثير غيرته حتى وإن حاول اخفاؤها طوال الوقت.

نظرت إليه وأنا مندهشة وقلت في نفسي:

- لقد صرت رجلا.

ثم نظرت إلى حلا أحاول استعطافها، فسألتها إن كان بإمكانها أن تمكث هي معي.

فبقيت عيناها مشتتة بيني وبين أحمد ثم اجابتني في براءة:
- لكن أحمد لن يجد من يلعب معه.

عانقتهم كثيرا وبكيت كثيرا. فشعوري تلك المرة كان مختلفا عن المرة السابقة فحين نفارق دون موعد آخر للقاء نكون قد فقدنا السلوان الوحيد ضد الفراق.

~~~~~~~~~~~~~~

الفصل الخامس

عدت الى الشركة بعد سفر الأولاد متأخرة ساعتين عن موعدي، كنت أشعر بذيول الخيبة تلحق بي في كل مكان، تجنبت الحديث مع أحد، ودخلت مكتبي في صمت.

طرق عبد العزيز باب المكتب بعد ساعة من مجيئي، ولم أكن في مزاج يسمح لي بالتحدث إليه، فالتعامل من خلف الأقنعة يستنزف الكثير من طاقتنا دون أن نشعر لكن لا مفر منه، خاصة أنه عين عبد الرحمن التي تنقل له كل التفاصيل بزخرفته الخاصة بالطبع.

دعوته للدخول ورحبت به بابتسامة مفتعلة لا تختلف كثيرا عن ابتسامته.
- أرى أنكِ في مزاج سيء اليوم.

سرحت قليلا وتخيلت لو كان بإمكاننا أن نفصح بأول ما يدور في رأسنا.
- أمور شخصية، شكرا على سؤالك.

- لدي خبر رائع يمكنه تغيير ذلك المزاج للأفضل.
نظرت إليه منتظرة أن يكمل حديثه دون أن أظهر أي ملامح فضول. فأكمل حديثه بعد أن شعر بالإحراج.
- لقد حققنا الأرقام التي وضعناها في الستة شهور الماضية.. مبروك!
قالها وعلى وجهه ابتسامة عريضة استطعت أن ارى من خلالها أن ضرس العقل العلوي مفقود.

- ممتاز! هل أخبرت السيد عبد الرحمن فربما قد ضاق صدره بالأخبار الكئيبة عن الشركة.

اختفت الابتسامة من على وجهه ثم قال:
- نعم أخبرته وسوف يتصل بك لتهنئتك بنفسه.
~~~~~~~~~~~~~~

كنت سعيدة بتحقيق تلك الأرقام من أجل أن أثبت لنفسي قبل أي أحد أن بإمكاني النجاح. أما سر سعادة عبد العزيز فقد فضحتها كلماته: حققنا! وضعناها! لا أدري متى وضعنا سويا الأرقام أو دوره في تحقيقها، لكن لا بأس لا أظن أن عبد الرحمن رجل غبي على أي حال.

في طريق العودة إلى المنزل لم تفارق صورة الأولاد ذهني وهم يلهون في طرقات المدينة، يسألون عن كل شيء من حولهم في فضول. كنت افتقد أيدي حلا الصغيرة وهي تحتضن كفي.. وذراعي أحمد وهو يعانقني وكأني أنا ابنته الصغيرة.
ربما لو ما كنت رأيتهم لكان أفضل، فكنت سأظل أتخيل وجودهم هنا وانتظره، فالخيال لا يؤلمنا بقدر الذكريات.. الخيال يمنحنا الأمل في الغد بينما الذكريات تمنحنا الألم.

~~~~~~~~~~~~~~

وصلت إلى المنزل في السادسة مساء، سمعت صوت الموسيقى أثناء فتح الباب، حين دخلت الشقة، كان صوت موسيقى البيانو يعلو في الهواء يداعب حبيبات اللافندر التي تفوح رائحته في الأركان، وعلى طاولة الطعام كانت تتراقص ألسنة الشموع البيضاء يمينا وشمالا، تميل بظلها فوق الورود الحمراء المتناثرة حول أطباق العشاء الساخنة والتي كان يتصاعد منها البخار.

خرج شريف من الغرفة فور دخولي بابتسامته الساحرة، اقترب مني وعانقني بقوة ثم قّبل رأسي وهو يقول:
- أعلم ان ذلك الأسبوع كان طويلا ومحزنا؛ لذلك حاولت أن ألملم كل ما تحبينه معا، الورود الحمراء، الشموع، اللافندر وأكلتك المفضلة مع موسيقى ريتشارد كلايدرمان.

- لقد نسيت ذكر أكثر ما أحب!

- ماذا؟

- أنت.

ابتسم شريف ووضع رأسي علي صدره
- أنا أسف يا حبيبتي، كنت أتمنى أن تسير الأمور مثل ما تمنيتي.
~~~~~~~~~~~~~~

- لا تعتذر؛ لقد فعلت كل ما بوسعك لذلك.

ضمني أكثر حتى سمعت دقات قلبه تنطق قبل لسانه:
- أحبك كثيرا يا نادين، لو كان ذلك الحزن بداخلك رجلا لقتلته.

- أنا أيضا أحبك كثيرا، لكنني أخشى إن قتلته أموت معه.

- إذن لا تجعليه يصل إلى روحك النقية.

- لقد لوثتها الحياة بذنوب الأحلام.

- الأحلام ليست خطايا، ألم أكن أنا ضمن أحلامك كما قلتِ لي من قبل؟

- أنت أجملها.

- إذن فلتسعدي بحلم بين يديك حقيقة الأن.

أمسك شريف بيدي ووضعها على كتفيه، ثم طوق خصري بذراعيه
- هيا.. لنرقص.

ضحكت وأنا أتمايل معه:
- هل أنت ساحر ما؟ أم أنك طبيب يمتلك أسرار الشفاء!

- بل أنا عاشق يمتلك مفاتيح قلبك.

- وجسدي أيضا.
قلتها وأنا أقبله في عنقه

- أرى أن الحزن يحرر وحوش أنوثتك.
- بل الحب ما يجعلني أود الغرق فيك أكثر.

- إذن دعينا نبحر حتى الغرق.

- لنبحر حتى الغرق

قلتها وأنا أنزع ملابسي ومخاوفي و افكاري، أتعرى جسدا وروحا وعقلا للرجل الذي عشقته بكل ما في قلبي من حزن. حملني فوق ذراعيه وهو يقبلني، مارسنا الحب كما لم نمارسه من قبل، ابتعدنا عن الواقع وأبحرنا في نهر من القبلات الطويلة، تحمل أمواج العشق أجسادنا بقوة اندفاعها فتنهزم جوارحنا ونستسلم للغرق في نشوة جامحة.

كان شريف يفعل كل شيء كي يعوضني عن رحيل الأولاد، في المساء اتجهنا نحو الشاطئ:

- لا شيء يمكنه بعث الهدوء في نفسك أكثر من الاسترخاء أمام البحر، خاصة في ذلك الطقس الرطب.

قالها شريف وهو يضحك، كان لديه حس فكاهي يمكنه التخفيف من أي مشكلة مهما كان ثقلها.
استلقينا على الرمال في جو هادئ تماما، فقد كان البحر ساكنا حتى تظنه لوحة سوداء يتخللها خطوط لامعة من انعكاس النجوم فوق صفحة مائه الرقراق.

- حدثيني عن أحلامك يا نادين؟ فلنتخيل أن ذلك البحر هو إطار زجاجي للعالم، فماذا سوف تضعين في عربة التسوق؟

سرحت قليلا قبل أن أجيبه:

- لا أدري! لقد اكتشفت أن الدفع عند الخروج يتم عن طريق المقايضة وما عدت أريد أن أخسر المزيد.

- لا يمكن الحصول علي كل شيء، لكن بإمكانك أن تختاري الأهم وتقايضي بما هو أقل أهمية.

- لا أظن أن هذا الاختيار وارد، فلا يوجد مقياس لأهمية ما نحتاجه، نحن نحتاج فحسب.

- هذا لأنك تكرهين الخسارة، تودين أن تمتلكي كل شيء.

فكرت في كلمات شريف، إذا كنت حقا أريد كل شيء فما الخطأ في ذلك؟

- هناك دوما شيء ناقص يا شريف! إن الأحلام مياه بحر لا تشبع عاطش للحياة.

- ليس هناك شيء ناقص دائما، بعض اللحظات تكاد أن تكون مثالية مثل تلك اللحظة الأن، أخبريني كيف كان من الممكن أن تصبح أكثر جمالا؟

- كان من الممكن أن تصبح مثالية حقا إن كنا نمتلك إحدى الفيلات المطلة على الشاطئ، نرى البحر وكأننا نملكه.

سكت شريف وقد شعرت أن إجابتي قد خذلته دون قصد، كنت فقط أحاول أن أشرح نظرتي للأمور.

- إذن المال هو ما ينقصك الأن؟
سألني من جديد.

- ربما، فيم تفكر؟

- أفكر كيف يمكننا الحصول عليه؟

- أنت تسخر مني إذن!

- لا يا نادين أنا أحاول حقا أن أجعلك سعيدة.

- أنا سعيدة يا شريف، لقد كانت مجرد أفكار عابرة.

- لا تستخفين بالأفكار العابرة، فهي أحلام مؤجلة في باطن عقولنا ستظل تؤرقنا دون علمنا.

- لا أفهمك!

- أنتِ محقة، إنه لشيء محبط أن نكون في ذلك العمر ولا نمتلك المال لحياة رغدة، لقد تخيلت مثلك إن كنا نمتلك مكان بهذا السحر فلسوف تكون حياتنا رائعة، خاصة بعد أن نتقاعد؛ نستيقظ في قلب البحر ونسهر ليلا تحت النجوم بعيدا عن صخب المدينة، ولكن كيف؟

- الأمر بسيط، تعال معي.

- إلى أين؟

- سأخبرك لاحقا.

في الطريق حاول شريف أن يفهم ما أحاول أن أفعله لكني أخبرته أنها مفاجأة وعليه أن ينتظر.

~~~~~~~~~~~~~~~~~~

كانت المرة الأولى التي يرى فيها شريف الشقة أو الغرفة التي كنت أقيم فيها قبل زواجنا، وقد صدم فور دخوله.

- يا الهي! هذه الغرفة لا تسمح سوى بحركة شخص واحد.

- محقة أنا إذن أن أحلم بثيلا.

- بالتأكيد! ولكن ماذا نفعل هنا الأن؟

- سأحقق أمنيتنا.

جلس شريف ينتظر على الأريكة وهو ينظر لي في تعجب، فتحت خزانة ملابسي وأحضرت الصندوق. ثم وضعته بين يدي شريف وطلبت منه فتحه.

- ما هذا؟

قالها وهو يفتحه في دهشة.

أمسكت بالحجر الثالث وكان يلمع باللون الأحمر، أعطيته لشريف ثم طلبت منه أن يكتب ما يشاء في المكان الفارغ فقد اختفى ما كتبته أخر مرة.

-أنتِ مجنونة يا نادين، ما هذا الصندوق؟ هل هذا مصباح علاء الدين! ولماذا تلك الأحجار منطفئة عن باقي الأحجار؟

- لأني قد استعملتها في أمنيات سابقة.

نظر إلي شريف بغضب لم أفهمه والقي الحجر في الصندوق، ثم اتجه نحو الباب وفتحه بعنف، نظر إلي قبل خروجه وقال لي بلهجة يائسة:

- لقد أفسدتِ الليلة بهذيان أحلامك، لا أعرف من قد نصب عليك وكم دفعتِ مقابل تلك الخردة! لكني أتمنى أن تتقبلي الحياة كما هي، وأن تدركي قيمة ما في يديك قبل فقدانه...

ثم رحل!

كنت مندهشة من ردة فعله، لماذا يحاول الجميع حصار أحلامي، ما الخطأ بأن نصنع الحياة كيفما نشاء، لماذا يجب أن أبقى ذليلة تحت رحمة الأقدار.

أمسكت بالحجر في غضب وكتبت ما تمنيت في تلك اللحظة، فقط كي أثبت لشريف أني لست حمقاء... فما قيمة طموحه في ذلك العمل الذي يفني فيه صحته ولا يستطيع شراء بيت بعد كل تلك السنين من الشقاء.

- غدا ستعرف أنك مخطئ وأني على صواب.

قلتها في سري وأنا أغلق الصندوق بعد ما كتبت:
~~~~~~~~~~~~~~~~~~

المال.

~~~~~~~~~~~~~~~

كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، أمسكت بهاتفي فوجدت رسالة من شريف:
(أنا آسف يا نادين! لا أعرف لماذا فقدت أعصابي هكذا، ربما الشعور بالعجز أني فشلت في إسعادك! فاعذريني حبيبتي، لقد تأخر الوقت الأن ولن تجدي حافلة، سوف امر عليكِ)

كلمات قليلة كانت كافية لتبخير الغضب وإعادة السلام من جديد، قد يبخل البعض بكلمة أو اعتذار فيتحول لهب عود ثقاب إلى بركان، لكن شريف ما كان يخجل أن يعتذر، بل إنه دائما من كان يبدأ بمد يديه بالحب.

(لا بأس يا حبيبي، أنا أيضا يجب أن أعتذر لك عن سوء تصرفي، يمكنني النوم هنا اليوم، فالوقت قد تأخر ولدينا عمل في الصباح الباكر، فلتغفُ عينيك الأن وتنعم في أحلام جميلة مثلك.. أحبك)

~~~~~~~~~~~~

تشابكت أغصان الأشجار والتفت حول بعضها بشكل غريب كأنها قد تحولت إلى شجرة واحدة بوسع الأرض، كان الطريق قد تحول إلى أسفلت لزج لم يجف بعد، كنت أحاول أن أركض بسرعة لكن مقاومة الأرض قد أبطأت حركتي، يلتصق حذائي بالطلاء فيترك أثره في كل خطوة. كانت السماء قرمزية وكأن الشمس قد أحرقت بخيوطها السحاب قبل أن تختفي خلف الأفق.

أثناء محاولتي للركض ظهر غراب فجأة ليحلق فوق رأسي وكأنه يلحق بي، حاولت أن أبتعد عنه فتزداد شدة نعيقه كلما ابتعدت، حتى تعثرت قدمي فوقعت على الأرض والتصق جسدي بالأسفلت، هبط الغراب فوق صدري وظل ينعق بشدة حتى وضعت يدي علي أذني، لم أكن أحتمل شدة صوته ووجهه القبيح يقترب مني أكثر فأكثر، كنت أخشى النظر إليه، لكنه ظل يقترب من وجهي حتي رأيت عيناه وكأنها مرآة تعكس وجه شريف صرخت بصوت عالي حتى طار بعيدا واستيقظت!

الثالثة صباحا!

لقد عاد الكابوس! بعد أشهر من سفري ظننت أنني قد هربت منه! لكنه قد لحق بي من جديد في صورة مختلفة أشد قبحا.

~~~~~~~~~

في طريقي إلى العمل في الصباح، كنت أشعر بشيء مختلف من حولي، كان صوت ذلك الغراب مازال يتردد في أذني، نفس الزحام والحركة اليومية، ولكني كنت أفتقد فيها الحياة التي أشعر بها في كل يوم، كان هناك قبضة في قلبي لا أستطيع تفسيرها.

اتصلت بشريف لأطمئن عليه:

- افتقدتك الأمس. .هل نمت جيدا؟

- نوم متقطع، كنت أفتقد عناقك.

- سأنتظرك على الغذاء.

- بدون صناديق؟ قالها وهو يضحك.

ضحكت وأغلقت الخط وقد شعرت بتحسن كبير بعد تلك المكالمة القصيرة، كان شريف لديه القدرة على صنع ابتسامتي حتى في أصعب الظروف.

بعد يوم طويل وسط أجهزة الحاسوب والاجتماعات ومراجعة العقود، كنت أنتظر بفارغ الصبر كي أعود إلى المنزل وألقي برأسي على صدر شريف مثل كل يوم.

جهزت طاولة الغداء كتلك التي جهزها شريف الليلة الماضية، لكن لا شك بأنه أبرع مني في ذلك فما كنت لأضع الورود حتى وقعت منها واحدة في صحن الشوربة، أما الشموع فقد احترقت يدي مرتين أثناء إشعالها.

انتظرت أمام الطاولة أتأمل ذوبان الشموع في صمت..

مضى أكثر من ساعة ، حاولت الاتصال به لكن هاتفه كان مغلقا!

حاولت أن أطمئن نفسي أنه ربما زحمة الطريق قد أخرته ونفذت بطارية هاتفه، لكن الساعة قد امتدت إلى ساعتين ثم إلى ثلاثة.. اتصلت بالمطعم فأخبرني النادل أن شريف قد رحل منذ أكثر من ثلاث ساعات.

بدأ القلق يسيطر عليّ و يشل تفكيري تماما..

مضى أكثر من خمس ساعات قد احترق بها الشمع حتى النهاية وأنا أهرول في المنزل ذهابا وإيابا ما بين مراقبة النافذة والساعة والهاتف!

حتي رن جرس الباب فركضت أفتح، كان رجلا آسيويا قصيرا يرتدي زي الشرطة سألني:

- هل هذا منزل السيد شريف؟

- نعم، أنا زوجته. ماذا حدث له؟
~~~~~~~~~

- أنا آسف سيدتي، لقد توفي زوجك في حادث سيارة وهو الآن في مشرحة المشفى، برجاء الحضور للتعرف على الجثة ومتابعة الإجراءات، ثم مد يديه بعنوان المشفى.

يقال أن عند موت من نحب نمر بثلاث مراحل أولها الإنكار، الإنكار يخفف الضغط على عقلك الذي يرفض الواقع رفضا تاما.

ثلاثة أيام كنت أنتظر شريف على نفس الطاولة، لم أذهب إلى العمل ولا إلى المشفى، لم أرد على أي اتصال أو جرس الباب. حبست نفسي في فقاعة الانتظار، كنت أنام ساعات قليلة أستيقظ على صوت المفاتيح في مقبض الباب، أظنه شريف قد عاد فأركض نحو باب الشقة وافتحه فلا أجد سوى سراب.

انفرطت أوراق الورد عن بعضها في ذبول وتصاعدت رائحة تعفن الطعام فوق الطاولة، فانتهت مرحلة الإنكار وبدأت ادرك ما خشيت إدراكه. من رحل لن يعود وما فقد لن يعوضه الزمان حتي لو عشت فوق عمري مئات الأعمار. كسّرت ساعات الانتظار، ألقيت بالطاولة بعنف نحو الباب فسقط كل ما عليها وتناثر كرماد فوق الأرض.
صرخت بصوت مكتوم بالدموع.. لماذا الآن؟

تلك المرة كانت الإجابة أسرع مما توقعت حين رن هاتفي وأجبت تلك المرة بلا صوت.
- السيدة نادين، نحن شركة لايف باك للتأمين، لقد عرفنا بوفاة السيد شريف ونود أن نبلغك خالص تعازينا، سوف يصلك الشيك عن طريق المندوب في خلال أيام قليلة.

- أي شيك؟ عن ماذا تتحدث؟

- لقد كان السيد شريف مؤمِّنا علي حياته منذ سنوات، ولكنه طلب منذ شهر أن يصرف مبلغ التأمين باسمك في حالة وفاته، فإن لم تكوني على علم بذلك، المبلغ المستحق هو ثلاثمائة الف دولار سنغافوري.

~~~~~~~~~~~~~~~~

الفصل السادس

في ليلة من ليالي العزلة
سيخونك النسيان
~~~~~~~~~~~~~~~~

وتتسلل الذكري
من تحت أبواب قلبك
الذي أوصدته جيدا
حتى لا يصاب ببرد الحنين
تراك ما وضعت في حسبانك
أن الذكريات لا تطرق باب
الذكريات تنساب من ثغرات الوحدة
تتلون بألوان الحلم
لتجد نفسك وجها لوجه
مع من منه هربت![1]

عدت إلى غرفتي القديمة، كان كل شيء يدعو إلى السخرية أكثر ما يدعو للحزن، هل دمر ذلك الصندوق حياتي؟ أم أنني من دمرتها بمحض إرادتي، اتصلت شيرين بي لتعزيني في شريف:

- قد زاد التواصل من أجل التعازي مؤخرا.

- لا أعرف يا نادين لماذا ساءت الأمور هكذا معك.

- لكنني أعرف.

- أخبريني إذن.

قالتها شيرين في قلق

- لقد تغيرت حياتي كثيرا في سنة واحدة ما بين القاع الي القمة والعكس، وهناك شيء أحتاج إلى تفسيره وربما يمكنك مساعدتي.

أخبرت شيرين بأمر الصندوق والكوابيس، وكانت غير مقتنعة بما أقول لكنها حاولت أن تبدو مهتمة حتى لا تزيد من همومي.

- إن الأمر غريب جدا، هل يمكنك إرسال صورته بالرغم أني ما زلت لا أعرف من اسأل؟

- اسألي أي مجنون، من فقدوا عقولهم يعرفون كل شيء.

كنت أشعر بقلق شيرين عليّ وعجزها عن رؤيتي بسبب سجنها في تلك الدولة حتى يمكنها الحصول على الجنسية، وكنت أنا في ذلك الوقت ولأول مرة لم أعد أنتظر شيئا، كل ما تمنيته أن أعود بالزمن ولكن لمتى؟ أو لأين؟ هل أعود إلى ما قبل أمنية

[1] *محمود درويش

المال فيعود شريف اليّ أو أعود إلى ما قبل شريف فيعود الأولاد الي حضني أم أعود إلى ما قبل سفري فتعود أمي!

فتحت الصندوق من جديد، وأمسكت بالحجر الرابع كان لونه أصفر وهاج كالذهب، كتبت شريف، فظل لمعانه دون أن ينطفئ واختفت الكلمة في ثوان، كتبت أحمد وحلا فلم ينطفئ! ففهمت أنه لا يعيد ما فقد من خلاله! يا له من سحر لا أملك رقية بطلانه.

ما قيمة المال الآن إن لم يكن هناك من يشاركني التمتع به! ما قيمة نجاحي الأن إن لم يكن هناك من يفخر بي! نحن نخسر كل شيء عندما نحاول أن نحصل على كل شيء. ما معنى العيش على تلك الأرض الساحرة وحدي، فهل أبوح بأحزاني لناطحات السحاب الصماء، أم أركض وسط الأشجار وقد أنهكني الركض في أحلامي بما يكفي.

نظرت الى الصندوق وفي محاولة للتحايل عليه ، كتبت بعد يأس:

العودة إلى الماضي.

وانطفأ الحجر...

~~~~~~~~~~~~

إن في شروق الشمس دعوة جديدة للنسيان، تخترق بحرارة أشعتها رداء الليل، يحترق الظلام وتتصاعد أبخرة الأمس فلا يبقى في الصباح سوى رماد الذكريات.

حين استيقظت كنت أتنفس من جديد دون أثر لرائحة ذلك الاحتراق، وكأن الأمس قد مر عليه سنوات، أو أنه كان حلما ما لا اذكر تفاصيله، حين خلعت ملابسي لأستحم تفاجأت من تفاصيل جسدي فنظرت إلى المرآة، كنت أبدو كامرأة أخرى، وجهي مشرق وقد اختفت منه التجاعيد والهالات السوداء، كان خصري قد عاد نحيلا دون أثر الجراحة أو الخطوط البيضاء، لمست ثديي كان أصغر ومشدودا وكأنه منحوت من العاج، شعري قد عادت كثافته واختفت تماما ما كان فيه من الفراغات.
قد عدت أصغر عشرة او خمسة عشر عام!

نظرت الى الصندوق وابتسمت، ثم همهمت بصوت ضعيف إليه:
-شكرا.

ارتديت فستان أبيض قصير قديم بلا أكمام لم يكن يصل الى خصري حتي لا استطيع رفعه إلى أعلي، لكنه التصق الأن علي جسدي ليظهر تفاصيله المثيرة،
~~~~~~~~~~~~

صففت شعري ونظرت طويلا إلى المرآة، كنت أفتقد ذلك الشعور، فقد كنت أتجنب المرايا منذ سنوات، لمست وجهي ورغم نظرة الحزن في عيني كنت أردد في سري:

- كم كنت جميلة!

في طريقي إلى العمل، كنت أفكر في ذلك التغيير في شكلي، في ذاكرتي الضعيفة للأحداث التي مرت بي في الشهور الأخيرة! حين كتبت الماضي تخيلت أن استيقظ في سرير الأولاد أو في منزل أمي القديم، لكنه ليس آلة الزمن على أي حال!
قد نجح الصندوق في إعادة بعض السنوات إلى عقلي وجسدي، لكنه فشل في أن يمحو ذلك الحزن من قلبي، ربما لا يمتلك سلطة النسيان على قلبي. كنت امرأة في جسد مراهقة وعقل عشرينية، وقلب كهل لم تستطع ترميمه الأحجار!

حين دخلت المكتب بعد أسبوع من الاختفاء، نظر إلي الموظفين في ذهول شديد، كنت أشعر بتردد ألسنتهم فهل يعزوني في زوجي أم يسألون عن سر شبابي المفاجئ، كان في تعاملهم معي حذر شديد وشفقة وكأني قد فقدت عقلي! لكنه لم يخف نظرات الإعجاب خاصة من عبد العزيز.

في المساء اتجهت إلى مركز التسوق، لأول مرة كنت أشتري كل ما تقع عليه عيني دون أن أنظر إلى السعر، كنت أخدر قلبي بالفساتين المزركشة والكعوب العالية ومساحيق التجميل الباهظة والأساور المرصعة بفصوص الألماس، يقال أن الجنس يُسكن حزن الرجل والتسوق يُسكن حزن المرأة.

كنت قد وصلت إلى المنزل حين تلقيت اتصال شيرين، سألتها فورا قبل أن أرحب بها؛

- هل توصلتِ إلى شيء؟

- اهدئي قليلا ،ما هذا الصندوق سوي قطعة خشب.

- إذن لم تعرفي شيئا بعد.

- بل عرفت لكن الأمر ليس سوى خرافات.

- كفاكِ ألغازا، أخبريني الآن بما عرفتِ.

- لقد بحثت في كل المكتبات الإلكترونية هنا، ولم أصل لشيء حتي وصفت لي صديقة عنوان وسيط روحاني يقال أنه بارع في أمور ما وراء الطبيعة، وبالرغم من أنني لا أؤمن اطلاقا بتلك الأمور لكني ذهبت إليه من أجلك.

- و ما رأيه إذن ذلك البارع؟

سألتها بنفاذ صبر.

- اتسعت عيناه حين رأي الصورة وقال أن هذا الصندوق لا يمكن أن يكون موجودا في الحقيقة؛ لأنه لم يسمع عنه إلا في أسطورة قديمة، و خمن أن ربما أحد على علم بتلك الأسطورة قد صمم صندوقا مشابها على سبيل المزاح أو الخداع.

- لازلت لا أفهم! أي أسطورة؟ ومن من الممكن أن يصنع صندوق مثله فقط لخداعي وقد وجدته صدفة على الشاطئ.

- هو يقول أن الصندوق أسمه (الأحلام الخمسة)، وإن الأحجار الموجودة فيه عند لمسها تصلها منك طاقتين، طاقة الحلم وطاقة الخوف، لذلك حين تكتبي الأمنية يتحقق الاثنين، ما تتمنين تحقيقه وما تخشين فقده.

سكتت قليلا وأنا أحاول بصعوبة استرجاع الأحداث في كل مرة استخدمت ذلك الصندوق ثم قلت لها:

- تفسير منطقي!

- لا يا نادين، هذا الحديث عبث ليس أكثر.

- ما تفسيرك إذن؟

- تفسيري الوحيد هو أنك رفضتِ ما بين يديك، ووضعت سعادتك أمام خيار واحد، إما كل شيء أو لا شيء، فلم تسعدي بأولادك لأنك كنتِ تفتقدين الحب، ولم تسعدي بشريف لأنك كنتِ تفتقدين المال، الحياة لا تمنحنا الكثير يا نادين، فإن لم نسعد بما نملك فلن نسعد أبدا، هل تظنين أنني لا أملك أحلاما مثلك؟ لدي زوج رائع وحياة مستقرة، لكن هل لا أحلم بأن أكون أما مثلك؟ هل لا أحلم بالمال والنجاح؟ بل أحلم بالكثير لكني لا أجعل من أحلامي كوابيس تطاردني ليلا.

لم أقتنع بكلمات شيرين ورفضت دخول قفص الاتهام من جديد، كنت على قناعة بأني لم أحلم بأكثر من حياة كالحياة*، فضلت تفسير ذلك الرجل الروحاني وإن كان ذلك لن يغير الأن شيئا.

- شكرا يا شيرين على دعمك لي.

أجبتها دون الدخول معها في جدال للدفاع عن نفسي.

- على الرحب والسعة يا حبيبتي، اوه.. لقد نسيت! لقد فسر لي أيضا أمر الساعة الثالثة صباحا، لقد قال إن ذلك الوقت مرتبط بمشاعر الحزن لديك وان "سلطتك العليا" هي ما تحاول تنبيهك إلى الإشارات التي يتم إرسالها إليك والخاصة بأهدافك، مزيد من الهراء! أعتقد.

قالتها وضحكت.

- لا بأس !على الأقل كان لديه إجابة.

- بالطبع لديه إجابة فقد تقاضى مائتي دولار، سوف ترديهم لي حين أراكِ.

ضحكت وودعتها.

~~~~~~~~~~~~~~~~~~

كم من الغباء أن ندخل في معركة مع الحياة، أحلامنا ما هي إلا سلاح ذو حدين فإن صوبنا أحداهما على الحياة فالأخر سيصوب نحونا بلا شك، لقد أضعت أكثر من نصف عمري في البحث عن السلام في طرق وهمية من الكمال، ربما أمي كانت على حق.. النقص هو سنة الحياة.

لا مزيد من المعارك الخاسرة الآن، لا مزيد من الأحلام، لم يعد هناك داع لذلك الصندوق، فما عاد هناك تمني ولا خوف.. فلن يجد بي ذلك الحجر الأخير من طاقة يترجمها إلى ربح وخسارة، سوف أدع الحجر بين أصابع الحياة.

لم أفقد ذاكرة الأمس لكني ما عدت أذكر تفاصيل شيء.

كَم تَشتَكي وَتَقولُ إِنَّكَ مُعدِمُ وَالأَرضُ مِلكُكَ وَالسَما وَالأَنجُمُ
وَلَكَ الحُقولُ وَزَهرُها وَأَريجُها وَنَسيمُها وَالبُلبُلُ المُتَرَنِّمُ
والماءُ حَوْلَكَ فضَّةً رَقراقَةً والشمسُ فَوْقَكَ عَسْجَدٌ يتَضَرَّمُ
و النور يبني في السّفوح و في الذّرى دورا مزخرفة و حينا يهدم(*)

*إيليا أبو ماضي

~~~~~~~~~~

كانت الشمس تنسحب خلف ناطحات السحاب حين وصلت إلى خليج مارينا وسط مئات السائحين والصور التذكارية، وكأننا نحتاج إلى ما يثبت لعقولنا يوما اننا كنا هنا، أو كي نتباهى وسط أناس لا يهمهم أمرنا في شيء بأننا نرى من الجمال ما لا تستطيع أعينهم أن تراه.

في منتزه ميرليون كانت تظلل الأشجار، المقاهي، والمطاعم، ومحلات بيع التذكارات وحركة الناس في تزايد وسط الممرات وفوق المقاعد المدرجة بعد أن امتص الأفق حرارة الشمس، وبدأ نسيم الغروب في الهبوب.

كان التجمع الأكثر خلف ذلك التمثال لمخلوق أسطوري يصل ارتفاعه ثمانية أمتار بجسد سمكة ورأس أسد يخرج من فمه نافورة تصب المياه في الخليج الممتد أمامه، يعرف ميرليون بأنه رمز تاريخ الدولة بين ما كانت عليه في الماضي وحاضرها الأن.

فكرت لحظة لو كان هناك مخلوق أسطوري يرمز الي حياتي فماذا سيكون؟ تخيلت طائرا بأجنحة عملاقة بلا أقدام، يظل محلقا في أعالي السماء، فلا يستطيع الهبوط لإسقاط الفرائس، ولا يمتلك مخالب للدفاع عن النفس!

كنت احتضن الصندوق أثناء تجولي في المنتزه، و أنا أنظر في أعين الناس من حولي، أحاول أن اقرأ ضحكاتهم، أن أسمع أحلامهم، أتخيل ماذا لو كان ذلك الصندوق بين يدي أحد منهم، هل كان ليسعده أم كان ليشقيه؟
في الجوار كان زوجان يتبادلان القبلات في حب ، وأمام عربة الحلوى يتسابق الأطفال يرجون أمهم لشراء المزيد، وتلك الفتاة الجميلة بجسد ممشوق تتجاهل من حولها نظرات الرجال.

توقفت للحظة، لقد عشت كل الأدوار و أخذت حصتي كاملة من الحياة، وذقت طعم النجاح والحب والأمومة والغنى، ورأيت الجمال في الأشجار، والأنهار والطيور وما بين شروق الشمس وغروبها وبعد الركض الطويل في الغابات ونبضات القلب بين الحزن والفرح قد رأيته في نفسي، فما عاد ليحزنني إن رحلت الآن.

اتجهت نحو الممر الواقع في منتصف خليج مارينا حتي وصلت إلى طرفه، وما إن ساد الظلام حتى أضاءت المصابيح الصفراء طرقات المنتزه والتمثال والمقاعد، وعكست أضواء المدينة الملونة صورة المباني على صفحة مياه الخليج الشفافة.

اقتربت من السور وتلفتت حولي كثيرا قبل أن أمد يدي لألقي بالصندوق، لكني توقفت حين سمعت صوتا من خلفي:

- هيا يا نادين لا تغضبي أمك.

نظرت خلفي وشعرت بالدماء تتجمد في أوردتي وقلبي يكاد يسقط من صدري إلى قدمي.
- أبي!

اقتربت منه أكثر، إنه هو في زي البريد الرث لم أكن أذكر إنه كان بمثل ذلك السوء من قبل، وجهه يبدو أكثر نحولا، لكن ابتسامته كما هي كما كانت محفورة في ذهني دائما.

- لقد تأخرتِ على المدرسة، كفاكِ مراوغة أنا وأمك نعلم أنكِ لست مريضة.

بدأ صوتي يرتجف وأنا أخبره:
- أبي.. أنت ميت!

لم ينتبه اليّ وكأني لم أتحدث، نظر إلى ساعته والتي كانت متوقفة عند السابعة، ثم قال وهو يمضي:
- لقد تأخرت على العمل ، لقد حذرتك من غضب أمك.

رأيته وهو يبتعد، حاولت أن أناديه لكن صوتي كان محبوسا بحنجرتي، حتى وصل إلى آخر الممر، فانطلقت مني صرخة عالية:
- أبي..

نظرت حولي فرأيت الجميع ينظرون إلي في دهشة ويتهامسون، فبدأت أركض بسرعة كبيرة حتى وصلت إلى نهاية الممشى أبحث عنه في كل مكان لكن لم يكن له أثر!

عدت إلى غرفتي وأنا في حالة يرثي لها كمن فقد عقله ومشط طرقات المدينة يبحث عن شيء لا يدري ما هو. عند فتح الغرفة وجدت المصابيح مضاءة ولمحت ظلا على سريري فتوقفت عند عتبة الباب أخشي الدخول حتى أفصح الظل عن نفسه واقترب مني وهو يقول:
- عندي لك خبر رائع! هل تتذكرين ذلك المعيد الوسيم الذي حدثتك عنه، لقد طلب الزواج مني، أما الخبر الأسعد فهو إنه يطمح في السفر لتكملة دراسته في الخارج، لقد أمسكت بعصفورين بحجر واحد.

ثم ضحكت.

شعرت بأنفاسي تختنق في حلقي، بقيت في مكاني لحظات حتى استطعت النطق:
- متى وكيف وصلتِ إلى هنا؟ وعن أي معيد تتحدثين؟ لقد تزوجتيه بالفعل.

نظرت شيرين إليّ تلك النظرة التي لم أنساها قط، ثم قالت نفس ما قالته لي في ذلك اليوم:
- ماذا بكِ؟ ألن تعانقيني و تباركين زواجي؟

اقتربت منها وأنا ارتجف، لقد كانت حقيقة كما رأيتها آخر مرة عند سفرها بنفس الفستان الأخضر القصير وشعرها المموج، مددت ذراعي لأعانقها لكن المصابيح انطفأت فجأة، وحين حاولت اشعالها مرة أخرى كانت قد اختفت!

كنت لا زلت ممسكة بالصندوق بين يدي. لقد عاد لي الماضي في صور حية لأحداث مر عليها سنوات طوال حتى ما عدت اذكرها لكن الآن أعيش تفاصيلها من جديد..

- كيف يمكنني التخلص منه قبل أن أفقد عقلي.
فكرت وأنا أضعه على الاريكة بجواري وأخشى النظر إليه.

~~~~~~~~~~~~~~~~

في الصباح كنت في اجتماع مع الموظفين حين تلقيت رسالة من أحمد:
- لقد نسيتِ عيد ميلادي يا أمي!

قرأت الرسالة فتوقفت عن الحديث وشعرت فجأة أني فقدت الاحساس بالزمن، ذلك الشعور الذي راودني على الشاطئ في أول مرة وجدت الصندوق.
بقيت شاردة أفكر متى كان عيد ميلاد أحمد؟ ما هو تاريخ اليوم؟ كيف صرت لا أذكر تلك التفاصيل في الوقت الذي أذكر فيه تفاصيل حياتي قبل الزواج بوضوح شديد.. كيف صار أبعد الماضي أقربه إلى ذاكرتي؟
سألتني إحدى الموظفات إن كنت بخير فطلبت منهم تأجيل الاجتماع فيما بعد.

بعد أن أصبحت وحدي في المكتب اتصلت بأحمد:
- كل عام وأنت بخير يا صغيري.. أنا أسفة لا أعرف كيف نسيت ذلك التاريخ المهم.
- لا بأس يا أمي.. لابد و أن موت شريف قد أحزنك كثيرا.. لقد أخبرتني الخالة شيرين.
~~~~~~~~~~~~~~~~

سكت قليلا وأنا أحاول أن أتذكر تفاصيل موت شريف فشعرت بقلبي يرتجف والحزن يتملك مني.. حاولت التماسك فسألته:

- هل احتفل ابيك بعيد ميلادك؟
- لا يا أمي.

قالها أحمد بنبرة حزينة.

- هل أنت بخير؟
- سوف يتزوج أبي وهو مشغول الآن بعروسه الجديدة.

صرخت بصوت عالي:

- ماذا؟ هل حلت عقدة لسانه أخيرا.. ألم يمكنه أن يبقى أبا لبضعة اشهر؟

شعرت بقلبي ينبض بحمم بركانية.. كنت أود أن أحلق لأصل إلى الأولاد في سرعة البرق، كيف يجرؤ ذلك الرجل أن يأخذهم مني بحجة زواجي ليعيشوا الآن مع زوجة أخرى لا أدري عنها شيء.

- اهدئي يا أمي لازلنا لا نعرف شيئا بعد، فقد سمعته يتحدث إليها كما أنه صار يخرج كثيرا في المساء ليلتقي بها، ولكنه لم يخبرنا بأمر الزواج حتى الآن.

- هل تتحدث عن ابيك؟ هشام؟ يخرج يقابلها كل يوم! ماذا يقول لها إذن؟ .. التقوقع على الطريقة الحديثة؟ أم كيفية العيش مع البكم؟

كم أتمنى حقا أن أفقد ذاكرتي الآن.

سمعت صوت بكاء أحمد. لا أدري كيف اقحمته في ذلك الحديث.. كيف أعماني غضبي هكذا.

-لا تبكي أرجوك.. أنا آسفة لا شك أني أم سيئة.

سكت أحمد ثم قال:

- أفتقدك يا أمي.. كم أتمنى أن تعود الحياة كما كانت.

أخذت نفسا عميقا ثم أجبته:

- لا يمكنني أن أعدك بذلك ولكني أعدك بأن تكون أفضل مما كنت أن عشت معي أنت وأختك.

سكت أحمد من جديد وشعرت أني أحاول الضغط عليه فأكملت حديثي:

- لا بأس يا صغيري.. أنا هنا في أي وقت احتجتم إلي ..أحبكم للأبد.

ودعته وأغلقت الخط.

~~~~~~~~~~~~~~~
~~~~~~~~~~~~~~~

في المساء كنت أحاول البحث عن طريقة للتخلص من ذلك الصندوق فبعد مكالمة أحمد شعرت بالخطر وخشيت أن تظل ذاكرتي تضعف حتى استيقظ يوما لا اذكر أولادي أو أظن نفسي طالبة واذهب إلى الجامعة.

اتجهت نحو مبنى المكتبة الوطنية، كان المبنى مكونا من ستة عشر دورا بمساحة هائلة، بواجهة زجاجية مثل ناطحات السحاب الأخرى التي تقع في المنطقة، تحيط به الأشجار من كل الزوايا.
في الدور الأرضي كان هناك خريطة إلكترونية للمكان والعديد من المقاهي، لم أفهم شيئا من الخريطة، فيما يبدو أنهما مبنيان متصلان عن طريق ممر داخلي أحدهما قديم والآخر تم ترميمه حديثا. صعدت الدور الأول وفقدت الأمل في أن أجد ما أبحث عنه وسط هذا الكم الهائل من الأرفف والكتب بمختلف اللغات.

بقيت في مكاني قليلا لا أعرف من أين أبدأ مازالت في الدور الأول، حتي سمعت صوت يناديني من خلف الكتب:
- نادين.. لا تظهرين في المكتبة سوى وقت الامتحانات.
نظرت حولي أبحث عن مصدر الصوت حتى وجدت رجلا عجوزا يقترب مني، ولغرابة الأمر تذكرته فورا:
- عم محمود!
أمين المكتبة.
- لستِ من محبي القراءة، فلا صبر لديكِ في البحث وسط الكتب لو تعلمين إن الكتب لثروة حقيقية.

لم أعرف كيف أتخلص من ذلك الطيف كان قلبي ينبض بسرعة، في محاولة بائسة مني سألته:
- هل يمكنك مساعدتي إذن؟
جاءني رده وهو يمضي بعيدا مثل ذلك اليوم:
- في أخر الممر كتب الإدارة سوف تجدي هناك ما تبحثين عنه.

- مدام! هل يمكنني مساعدتك؟
فزعت مرة أخرى حين سمعت الصوت! لكنه كان يتحدث الإنجليزية، فعرفت أني لست أتوهم من جديد.
نظرت إليه كان يرتدي الزي الرسمي للمكان، ذو بشرة شديدة السمرة وجسد رياضي، يبدو من أصل أفريقي!
لم أعرف بما أخبره خاصة لو كان قد رآني اتحدث إلى نفسي منذ قليل فسوف يتأكد أني مجنونة.
- أبحث عن كتب تفسير الأساطير القديمة، كتب عن ما وراء الطبيعة.. أشياء من هذا القبيل.

- بأي لغة؟
سألني
- العربية أو الإنجليزية.

- لست متأكد من طلبك لكن ربما تجدين شيئا مقاربا له في الدور الثالث.
شكرته ومضيت.

صعدت إلى الدور الثالث فوجدت العديد من الكتب التي تحمل كلمة أسطورة: تاريخ الأساطير، الأساطير اليونانية والرومانية، أساطير اليهود، أساطير إغريقية...

يا الهي! أين أبحث وسط كل ذلك؟
بقيت أتجول وسط الأرفف حتى لمحت كتاب أقرب لما أبحث عنه، (أساطير الأحلام)!

أخذت الكتاب وجلست فوق إحدى طاولات القراءة، كان الكتاب مكونا من خمسمائة صفحة!
ففتحت الفهرس الخاص به:
آلهة الأحلام، قلادة النجمة الثمانية... ثم توقفت حين قرأت الاسم ....الأحلام الخمسة.
فتحت سريعا على الصفحة الخاصة مائتين وعشرين.

(صندوق الأحلام الخمسة.. يقال إن أحد السحرة من الرومان حاول أن يصنع طريقة لتحقيق الأحلام، فوضع أحجارا في صندوق وقرأ تعويذته الخاصة، لكن السحر قد أنقلب على الساحر وتحولت الأحجار إلى لعنة حاول التخلص منها قبل أن ينهي أمنيته الأخيرة لكنه قد احترق في محاولة حرق الصندوق، ثم بعد موته كتب المقربون منه التحذيرات فوق الصندوق حتى لا يتمكن أحد من استخدامه، وفسروا فشل محاولته نتيجة صراعاته الداخلية بين ما يريد وما يخشى فقدانه، فقاموا برسم الصراعات على هيئة أشكال مخيفة تتنازع على الحلم، ويقال إن طاقة الصندوق تتجدد حين تنكسر أشعة الشمس وقت الأمطار فتتخذ الأحجار ألوان قوس قزح وتعود إلى الحياة من جديد، وإن الصندوق هو من يجد صاحبه عن طريق إرسال إشارات في الثالثة صباحا في أيام اكتمال البدر فقاموا برسم الشمس والقمر في اتجاهين معاكسين على الصندوق)

أغلقت الكتاب وقد شعرت أني في عمق أكثر مما توقعت، فإن لم يتمكن صانعه من التخلص منه فكيف يمكنني انا!

عدت إلى غرفتي وأنا لا أعرف ما يمكنني فعله، حملت الصندوق بين يدي وبقيت أنظر إليه وأنا افكر في أمر ذلك الساحر، ثم انتبهت لشيء مهم، لقد حاول

التخلص منه قبل أن يستخدم الحجر الأخير! ربما بإمكاني حرقه إذا انطفئت كل الأحجار..

فتحت الصندوق وأمسكت بالحجر الخامس، كان لونه يميل إلى البنفسجي.
مضى أكثر من نصف ساعة وأنا ممسكة به حتى بدأت يدي في التعرق.
كم كان الأمر مضحكا! بعد أن كانت الأرض لا تسع أحلامي، لم يعد لدي حلم واحد لأكتبه ! ما أحتاجه الآن هو كل ما فقد مني من خلاله.

ماذا اتمني؟
ذاكرة جديدة !
قلب جديد !
عقل جديد !

ربما روح جديدة..

كتبتها بأخر حجر وشعرت براحة غريبة حين انطفأ، وبالرغم من خوفي من خطوة إحراقه لكني كنت أنتظر تلك اللحظة. سكبت قنينة العطر فوقه ووضعته في حوض المطبخ، أشعلت عود ثقاب ويدي ترتجف وأنا اقترب منه، لكني تذكرت أمي والأولاد وشريف فشعرت بالكراهية تحركني، فألقيت بعود الثقاب بسرعة وابتعدت عنه.

رأيت النيران تتصاعد بسرعة هائلة، وجهاز الإنذار بدأ في الرنين في ثوان.. فتحت النافذة لكن ضيق المكان جعلني أختنق بسرعة، كنت أشعر بأنفاسي تتلاشى حاولت أن أفتح المياه لإطفاء النيران لكني لم أعد أرى شيئا من كثافة الدخان، سمعت صوت طرقات الباب حاولت أن أفتح فربما أحد من الجيران يساعدني، لكني لم أقو على الحركة.. كنت أشعر بنبضات قلبي تتهاوى، وموجة من الضباب الأسود تحيط بي من كل مكان.. حاولت أن أقاوم.. أن أتنفس.. لكن الدخان قد حجب الهواء تماما عن صدري.. حتى لم أعد أشعر بشيء.

~~~~~~~~~~~~~~~~~~

فتحت عيني بصعوبة فوجدت نفسي في غرفة بيضاء، وفوقي مصباح أشعر بحرارته وفي اصبعي جهاز على شكل مشبك لقياس نبضات القلب.

كنت ما زلت أشعر بثقل شديد في رأسي ورغبة في القيء من شدة الدوار، سمعت صوت أقدام تخطو نحو الغرفة ثم فتحت الممرضة الباب وفي صحبتها الطبيب.

- كيف حالك الآن؟
~~~~~~~~~~~~~~~~~~

سألني الطبيب وهو يدون ملاحظاته، بينما تضع الممرضة جهاز قياس الضغط حول ذراعي.

- ماذا حدث؟ لا اذكر شيئا!

سألته

- لقد نجوتِ بأعجوبة من ذلك الحريق، لا تقلقي الجنين أيضا بخير.
- أي جنين؟

سألته في دهشة ، قلت في نفسي ربما أخطأت في ترجمة كلماته!

- ألم تكوني على علم بأمر حملك؟ فالجنين عمره شهر ونصف الآن.

لم أقو على النطق من وقع المفاجأة، تذكرت شريف وودت أن أبكي.

أشارت له الممرضة بأن كل شيء على ما يرام، وقبل أن يرحلا اقترب من سريري وكأنه لا يريد لصوته أن يُسمع ثم قال:

- عندما تكونين مستعدة برجاء إخبار الممرضة، فهناك شرطي بالخارج منذ ساعات يرغب في التحقيق معكِ في أمر الحادث.

- لقد كان غير مقصود.

قلتها بسرعة دون تفكير

- لست انا المحقق، انا ابلغك فقط بما عليك فعله.

ثم رحل.

لم يمضي الكثير من الوقت حتى سمعت طرق الباب والشرطي يتقدم نحوي، لابد من إنه قد نفذ صبره في الانتظار أو أخبرته الممرضة أني استيقظت.

- مساء الخير يا مدام نادين، هل انتِ في حالة تسمح لكِ بالإجابة على بعض الأسئلة.

ازدادت سرعة ضربات قلبي على الجهاز وكأنه جهاز لكشف الكذب حاولت أن أهدأ قليلا ثم أجبته بنعم.

- لقد اتصل بنا جار لك بعد أن شب الحريق في شقتك، لقد كسر باب الشقة في محاولة إنقاذك.. هل يمكنك أن تشرحي لي ما حدث؟

لم أكن مستعدة لذلك التحقيق ولم يكن هناك أي كذبة حاضرة في ذهني، فأجبته متلعثمة:

-لا أدري لقد عدت من الخارج فوجدت الدخان يخرج من الغرفة وعندما فتحت الباب لم أرى شيئا، وشعرت بالاختناق ثم فقدت الوعي.

- لا أظن أن هذا ما حدث، فقد كسر جارك الباب ووجدك بجوار الموقد على الأرض، ليس من المنطقي أن تغلقي الباب خلفك إذا كان الوضع كما قلتِ عند وصولك.

كم انا غبية! قلت في سري، لم يكن هناك مفر من الاعتراف، لكن بماذا أعترف، أني حرقت صندوق الأحلام الخمسة لأنه حطم حياتي! فربما يرسلني لإحدى المصحات النفسية!

- في الحقيقة لقد كنت أحاول ان أحرق بعض الصور الخاصة بزواجي القديم لأني كنت في حالة صدمة عندما علمت بأمر زواج زوجي السابق، ولم أتوقع أن تصل الأمور إلى ذلك الحد.

جاءتني تلك الفكرة فجأة وقد شعرت بأن لا بأس بها.

- إذن ما أمر الصندوق؟ لقد قال المحقق إن مصدر الحريق صندوق خشبي تم إشعال النار فيه.

سألني الشرطي في دهاء

شعرت بالدوار يزداد في رأسي ولم أقو على نطق كلمة واحدة، لقد أوقعني في شباكه وما عاد هناك مجال للهرب.

أكمل حديثه بلهجة صارمة كقاضي ينطق بالحكم النهائي بعد أن أمسك بخيوط الجريمة:

- إشعال حريق عن عمد قضية يحاسب عليها القانون، فقد كان من الممكن أن يتسبب في قتل أرواح بريئة ، كما إن مالك العقار قد رفع دعوى ضدك وأصبح وضعك سيئا.. لكن ما يمكننا مساعدتك فيه هو دفع غرامة لصاحب العقار، سوف تحكم المحكمة بقيمتها كما إنه للأسف سوف يتم ترحيلك عن سنغافورة. هذا إن لم يحكم بحبسك.

~~~~~~~~~~~~~~~~~~~~

الفصل السابع

بعد مرور عشر سنوات....

- لقد اشتقت إلى رائحة المعجنات التي تصنعيها، تذكرني بأمي رحمها الله.

قالتها شيرين وأنا أجهز الفطور

- لو كنتِ هنا دائما كنت سأحضرها لك كل يوم.

ضحكت شيرين وهي تسحب واحدة من الطبق

- أنا هنا منذ أسبوع ولم تصنعيها سوي اليوم!
- أسفة حقا يا شيرين لقد كان أسبوع مزدحم في العمل.
- لا بأس أنا أتفهم ذلك، سوف أوقظ الأولاد لنفطر سويا.
~~~~~~~~~~~~~~~~~~~~

اجتمعنا علي طاولة الطعام أنا وشيرين والأولاد في شقة أمي القديمة في الهرم، لم أر شيرين منذ زيارتها الأخيرة منذ ثلاثة سنوات.

- أمي! هل يمكن أن أصطحب شريف معي اليوم إلى السينما؟

سألني أحمد

- لا بأس! فقط لا تتركه لوحده.

قاطعت حلا حديثنا:

- لماذا لا أذهب معهم؟
- كلهم أولاد ما شأنك بهم!

امتعضت حلا وقالت بلهجة ساخرة:

- لماذا لم أخُلق ولد؟
- هل يجب أن تسألي لماذا طوال الوقت؟

سألتها بنفاذ صبر

ضحكت شيرين ونظرت الي:

- حقا البنت مرآة أمها، أكاد أن أسمع صوتك في كل شكوي من حلا.
- لا يا شيرين لم أكن ملحة هكذا.
- بل كنتِ.

شعرت حلا بالانتصار بعد دفاع خالتها وأضافت:

- ربما أكثر مني.

بعد الفطور حضرت لنا حلا الشاي وأحضرته في الشرفة حيث جلست أنا وشيرين بينما ذهب الأولاد لمشاهدة التلفزيون.

- لقد أصبح الشارع مزدحما كثيرا، هل تذكرين كيف كان ذلك الشارع حين كنا أطفالا، كانت أمي تخشى نزولنا من شدة هدوءه!

قالت شيرين وهي تنظر من الشرفة إلى الباعة الجائلين على الأرصفة بأصواتهم المرتفعة.

- أمي كانت تخشى كل شيء .

أجبتها.

جلست شيرين بجواري وهمست لي:

- شريف لا يشبهك! كل مرة أراه فيها يتغير شكله ويكبر، لكن لا يملك أي من ملامحك.

سرحت قليلا ثم قلت بعد أن تنهدت.

-نعم هو نسخة من أبيه.

- ماذا عن هشام؟ هل مازال يتصل بالأولاد؟
- من حين لأخر، سمعت أنه انفصل عن زوجته.

- حقا! لابد من أنك سعيدة.

ضحكت في دهشة

- لا يسعدني ولا يحزنني.

سكتت شيرين قليلا قبل أن تسألني:

- هل ندمتِ يوما على انفصالك عن هشام؟

أجبتها بسرعة دون تفكير:

- لو كان هذا الصندوق صنع شيئا واحدا جيدا من أجلي فهو انفصالي عن هشام.
- يا الهي! أما زلتِ تظنين أن هذا الصندوق له دخل في حياتك بأي شكل؟
- بلا شك! لا يمكن أن يكون كل ما حدث صدفة. ثم دعينا من أمر الصندوق لقد مضى زمن عليه.
- كنت اتمنى ان ارى ذلك الصندوق السحري.

قالتها شيرين وضحكت ساخرة

- لم يعد موجودا، لقد احترق مع كل شيء كان في الغرفة.

كنت أشعر بالنعاس والإرهاق بعد أسبوع طويل، حتى أن شيرين لاحظت ذلك فوضعت يديها على كتفي وقالت:

- أشعر أنك مجهدة كثيرا يا نادين، ألا تفكرين في أن الزواج والمسؤوليات ثقيلة عليك وحدك.
- أي زواج! لقد قاربت على الخمسون وأولادي الآن شباب.. أنا فقط مجهدة من العمل.
- ربما يمكنك البحث عن عمل مريح أكثر!
- لا أظن ان هناك عملا مريحا، كما أن العمل في المبيعات هو ما أجيده طوال حياتي.
- يحزنني أن أراكِ وحيدة هكذا، لا أعرف لماذا لا توافقين على الهجرة لنكون سويا، هل لابد من صندوق لسفرك!
- لا تقلقي يا شيرين أنا لست وحدي، لدي ثلاثة أبناء يشغلون كل وقتي، كما أنني توقفت عن الاحلام والتمني منذ زمن.
- لا تكوني حمقاء! لو توقفنا عن الحلم نموت.

سرحت طويلا قبل أن أجيبها:

- بل الحياة تبدأ بعد موت الأحلام.

قاطعتنا حلا حين دخلت الشرفة وهي ترتدي فستانا أحمر قصيرا، وتضع القليل من مساحيق التجميل، نظرت إليها وأنا أري فيها جمال منحتني اياه المرايا يوما ما، صارت حلا في طولي، بجسد ممشوق وبشرة بيضاء ناعمة وأعين ترى العالم يلمع من خلالهما.

سألتها:

- إلى أين ؟

- سوف أذهب إلى ريم صديقتي.
- كل هذا التألق من أجل ريم؟
- يا امي! هل لابد أن أخرج بملابس النوم حتي تصدقيني؟

حاولت شيرين تهدئة الحوار بعد أن ارتفع صوت حلا:

- ما بكِ يا نادين؟ البنت في عمر لابد أن تعتني بمظهرها، وهي لا تبدو لي أنها بالغت في شيء.
- أنتِ لا تعيشين هنا، تنظرين إليها من عيون الغرب.

قلت لشيرين ثم نظرت إلى حلا وطلبت منها تغيير ملابسها، فتذمرت قائلة؛

- لن أذهب إلى مكان.

ورحلت غاضبة.

- لماذا يا نادين؟ لقد كنتِي أنتِ من ترفضين أسلوب أمي معك، أراه الآن في كل تصرفاتك.
- أنتِ لا تعرفين حلا، أنا أخشي عليها، فهي دائما تجلس وحدها تسمع الأغاني ولا تتحدث إلى أحد وكأنها في عالم أخر.

ضحكت شيرين قائلة:

- وماذا إذن؟ هذا طبيعي في مثل سنها فربما هي واقعة في الحب.

غضبت من كلام شيرين ونظرت إليها في دهشة؛

- أي حب! البنت مازالت في الخامسة عشر! لقد تغيرت أفكارك كثيرا منذ سفرك.
- بل أنتِ يا نادين من تغيرتِ كثيرا منذ عودتك الى مصر. أين ذهبت روحك المحبة للحياة؟ أظن أن نادين التي أراها الآن كانت لتسعد مع هشام.

انتهى الحديث بيننا في محاولة مني لتجنب الوقوع في شجار لا داع له، لم تتغير شيرين فمازالت تواجهني دائما بما أحاول الهروب منه! لقد أعتدت الحياة هكذا منذ عودتي بعد أن خسرت كل شيء خاصة بعد تلك القضية، ربما قد احترقت أحلامي في ذلك اليوم فلم يعد معي من تلك الرحلة سوى رماد الذكريات وبعض النقود بعد دفع التعويض لمالك العقار وشريف ابني..

وها أنا الآن ..ما عادت التجاعيد تزعجني، ما عادت الوحدة تزعجني، ما عاد شيء يزعجني ...أو يسعدني! فهل فقدت الشعور مع أحلامي!

في المساء كان الأولاد نائمون في غرفتي القديمة وحلا في غرفة شيرين القديمة وأنا وشيرين في غرفة أمي، كنت أحارب الأرق بعد كلمات شيرين ذلك الصباح، أحاول أن أغفو في سلام مثل كل يوم.

سمعت صوتا أشبه بصراخ مكتوم، أسرعت إلى الخارج أبحث عن مصدره، حتى سمعت الصوت يقترب من غرفة حلا.

كان قلبي ينتفض وأنا أفتح الباب بسرعة وجدتها نائمة وتصدر صوت آنين، وصدرها يعلو ويهبط بسرعة هائلة، اقتربت منها وحاولت إيقاظها بهدوء حتى لا تفزع، فوضعت يدي علي كتفها وهمست في أذنها برفق: استيقظي حبيبتي أنا أمك.
انتفضت حلا من فوق السرير ووجهها وملابسها مبللة بالعرق.
عانقتني وهي تحاول أن تتنفس ببطء

- لا بأس يا حبيبتي فقط حلم سيء، أنا أسفة لقد كنت قاسية معك اليوم ربما ذلك السبب.

نظرت إلى حلا بوجه شاحب ثم قالت:

- لا يا أمي! ليس أنتِ، إنه حلم غريب يراودني منذ أشهر.. كنت أري نفسي أركض في غابة مخيفة أتفادى الأشجار في طريقي والسماء تتلون من النهار حتى الليل وأنا أركض، ثم سمعت ذلك الصوت يناديني وتلك الحفرة.. تلك الحفرة يا أمي.. بها وجه مخيف.. إنه..

ثم بدأت حلا تبكي فقلت لها بصوت محموم:
-إنه أنتِ!

نظرت الي الساعة بجوار السرير فوجدتها:
-الثالثة صباحا.

~~~~~~~~~~~~~~
~~~~~~~~~~~~~~